# عصام عبد الحافظ

## رواية

# الرهّان

**اسم الرواية : الدهان**

**اسم الكاتب : عصام عبد الحافظ**

**تصميم الغلاف : مي مجدي**

**تنسيق : نورهان هاني**

**رقم الإيداع : ٢٠٢٤/٣٤٤٦٨م**

**الترقيم الدولي : ٧-٧٤-٨٧٩١-٩٧٧-٩٧٨**

**كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف**

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

# الرهان

إلى حظيرة قطيع الأغنام

تسلل ذئبٌ والناسُ نيَام

فانتبه ديكٌ ألمعيٌ وصاح

وانتبه كلبٌ وفيٌ بالنباح

فاستيقظ الناسُ وشدوا السلاح

فهرب الذئبُ وراح

ونجا القطيعُ من السفاح

واحتفل الناسُ بهذا النجاح

فذبحوا الديك وتوقف الصياح

وهكذا ضحية الوعيُ ذبحُ الصيّاح

# الجزء الأول

# أرضٌ مُقدسةٌ !

# ١

قالوا، وقد صدقوا.

الإرادة تصنع المعجزات.

الإرادة تصرع المستحيلات.

الإرادة مُحركها العقل، والمُخ عنوان العقل، لكل المخلوقات مُخ، ولكي يعمل المُخ ويصبح سويًا، فإنه يحتاج إلى تدريب، ويحتاج إلى تشغيل.

لاحِظوا أنه بدون عقل بشري سوِيُّ لا توجد إرادة لكي تتحقق المُعجزات، لكي نتغلّب على المُستحيلات، والأمثلة على ذلك كثيرة ومعروفة منذ بدء الخليقة وإلى عهد قريب، ويكفي أن نستعرض بضعًا منها في إيجاز شديد..

قبل ميلاد السيد المسيح بعدة آلاف من السنين، عرف المصريون القدماء معنى الإرادة، وبها أقاموا أقدم حضارات الإنسانية، وتركوا للأحفاد كنوزًا مازالت شاهدة عليهم، وعلى عظمتهم في آثار العالم، في المعابد والأهرامات والمسلات الفرعونية، وفي عهد أحمس اخترعوا العجلات الحربية، وأوقفوا غزو الرعاع الهكسوس، هزموهم شر هزيمة.

وبعد حوالي ستمائة عام من هجرة رسول الله محمد خاتم الانبياء والمرسلين ﷺ، كان الصينيون على موعد مع الارادة للحفاظ على ثاني أقدم حضارة في التاريخ، فقد كانوا قاب قوسين من التدمير والإبادة من جيش المغول، كان للمغول أقوى الجيوش في ذلك الوقت، ويقوده جنكيز خان ملك ملوك الارض، وهو اللقب الذي أُشتهر به لوقوع أكثر من نصف الارض تحت حُكمه.

لم ييأس الصينيون، ولم تنهر عزيمتهم رغم الحصار والبربرية القاسية للمغول على مدار سنوات، توصلوا إلى اختراع البارود في حربهم مع الغُزاة، أخذوا فكرة الاختراع من استخدامهم للألعاب النارية التي اعتادوا عليها في احتفالات إمبراطوريتهم على مر السنين، فكانوا أول من صنع البارود في العالم، وبه قلبوا موازين الحرب، وفتكوا بالمغول وطردوهم عن بلادهم بلا رجعة..

كانت الفائدة الوحيدة للمغول من هذه المواجهة الدامية، أنهم أخذوا من الصينيين فكرة استخدام البارود في حروبهم بعد ذلك، واجتاحوا بها كل البلاد في طريق غزواتهم صوب الغرب، دهسوا العديد من بلاد الشرق الاوسط وبعض البلدات الاوربية، واحتلوا القسطنطينية دُرة الصليبيين في الشمال الغربي، ودمروا بغداد دُرة العباسيين والسلاجقة في الجنوب الشرقي.

وقبل نهاية القرن السابع عشر بثلاثة عقود ونصف، وقع حريق لندن العظيم، ويُعد أسوأ حرائق التاريخ بعد حريق روما الشهير، فقد كانت لندن عنوانًا للبيئة السيئة التي تكتظ بالأوساخ والقاذورات، تتكون مبانيها وبيوتها من أكواخ خشبية مُتراصة ومُتلاصقة، وتتخللها دروب ضيقة كريهة، وعندما اندلعت فيها النيران أتت عليها في غضون ساعات، وأحالت أربعة أخماسها إلى أكوام من الرماد.

وقع العديد من الأطفال وضِعاف البنية ومعظم الممتلكات والثروات وقودًا للحرائق، وشُرد جُل سكانها، لكن إرادة التغيير أدخلت المنكوبين في تحد لم يسبق له مثيل، فمن لا شيء تقريبا أعادوا بناء لندن في شكل وطراز جديد، كان بمثابة البداية الحقيقية للحضارة

الإنسانية في تأسيس المدن الحديثة، وكانت الانطلاقة لعصر الصناعة، وأصبحت من أكبر وأعرق مدن العالم بشكلها الحالي، وتوالت بعدها بعقود وقرون تالية مدن عملاقة في الحضارة وفنون العمارة، مثل روما وبرلين وطوكيو وشنغهاي ودبي، والدوحة التي عُرِّفت بدوحَة العرب بعد المونديال .

وقبل نهاية العقد الثاني للقرن العشرين، لم ييأس عالم امريكي.. روبرت جودر.. في مواجهة أكثر من عشر محاولات فاشلة لإختراع الصاروخ، وفي محاولته الثانية عشرة توصل إلى تقنية اختراعه، وفي كل مرة كانت زوجته تقف في ظهره، تشحن إرادته بالاستمرار في محاولاته، فأصبح أول مخترع لهذه الآلة التي فتحت الطريق أمام ارتياد الفضاء والعبور إلى الكواكب الأُخرى في السماوات السبع.

هذه النماذج التي حققت بالارادة المعجزات، وتغلبت بالعزيمة على المستحيلات، قد سبقتها وجاءت بعدها نماذج أُخرى لا تقل أهمية في انجازاتها، ومنهم ابن الهيثم، ابن حيان، جراهام بيل، إديسون، أينشتين، واختتم أصحاب الارادة القرن العشرين بتصغير العالم إلى قرية صغيرة، قرية يحملها جميع سُكانها في راحة الأيدي، بشبكة عنكبوتية صنعوا عالمًا افتراضيًا داخل جهاز صغير، يحمله الاطفال في حقائب المدرسة مع أقلامهم وكراساتهم، ويضعه الكبار في أحد جيوب سُتراتهم.

الإرادة، هي ثورة على الخمول واليأس والاستسلام.
إذا قامت الإرادة، اندلعت الثورات وتحقق التغيير.

مع نهاية العقد الاول من القرن الحادي والعشرين كان الشرق الأوسط على موعد مع إحياء الإرادة، أرادوا التغيير بعد عقود من الاحتكار والحرمان، حققوا المستحيل مثل أجدادهم، تعلموا من التجربة مثلما فعل المغول، أعادوا توظيف الاختراع الذي أبهر العالم، فأبهروه أكثر بألمعيتهم، فتمنى باراك أوباما أن يقتدي الشباب الامريكي بالشباب المصري، يتعلموا من تجربتهم في توظيف الشبكة العنكبوتية، وفي مد التواصل الاجتماعي للأمل والمستقبل.

من الشبكة العنكبوتية صنعوا المستحيل، فجروا ثورات عظيمة، غيروا معتقدات بالية، أزاحوا أنظمة ديكتاتورية أوصلت أقدم الحضارات إلى حافة الهاوية، في التعليم، في الصحة، في البنية التحتية، في حقوق الانسان، في الحريات، في عدم المساواة.

لكن بعد أقل من عامين، دخل الناس في دوامات وتساؤلات، لماذا لم يتحقق الأمل؟! لماذا لم يكتمل الحلم ، ولماذا انقلب كل شيء تدريجيًا؟!

هل وقعت وتغولت ثورات مُضادة ؟!

أُدّخَلت الشعوب في أنفاق مُظلمة من جديد؟!

المؤيدون يقولون:

- ربما، بل هو أكيد !

المعارضون يردون:

- لا، بل هي ثورات شعبية !

*****

ربما، هي خديعة مُتكاملة الأركان.

ربما، هو مُخطط سابق الإعداد والتجهيز والتعليب.

ولماذا يميل البعض إلى وصف الخديعة أصلًا؟!.

هل لأنه لم يستطع أحد أن يلتفت إليها، ولم يتوصل أحد إلى فك بعض من طلاسمها إلا بعد حين. أم أنها مُجرد أوهام في عقول المُتشككين دائمًا.

هي لم تكن من نوعية خديعة السادات لإسرائيل قبل حرب أكتوبر، ولم تكن مثل خديعة عبدالناصر للإخوان منذ حادث المنشية الشهير، فهل كانت أشبه بالخديعة الكبرى التى حاكها الكولونيل توماس إدوارد لورنس Thomas Edward Lawrence الشهير إعلامياً باسم لورنس العرب.

نعم كان لورنس خدعة كبرى، مازال العرب يُعانون من ويلاتها ويتألمون من توابعها، يتساءلون كيف وقعوا ضحية هذا الجاسوس البريطانى؟! كيف خدَّر عقولهم؟! كيف ألغى تَفكيرهم؟! ونجح فى تحريضهم ضد الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الاولى. نجح الجاسوس صاحب العيون الزرقاء والبشرة البيضاء فى إشعال ما يُسمى بالثورة العربية ضد دولة مُترامية الأطراف تحكُمها عقيدة واحدة، ويلفُها شعار واحد، هكذا كانت تبدو أمام الغرب الأوربى والصهيونية العالمية حتى لو كانت تُعانى من ضعف واحتلال لبعض أطرافها.

تلاعب لورنس بعقول قادة قبائل العرب وأمُرائهم، وعلى الرُغم من قِصّر قامته، لكن دهاءه كان أعلى من قامته وأبعد من تفكيرهم، تفوق بقدرته على التلاعب بالالفاظ، بإسرَافِه فى الوعود، فحوَّلَ الخشونة والغلظة والصلابة، إلى نعومة، إلى رقة، إلى طراوة، وإلى ليونة، وهذه صفات تُقابلها صفات وأدوات وردود أفعال، وكأنه استخدام لأخبث أساليب المُداهنة، ولأرقى أنواع الدهون والزيوت في التمرير والتطويع والتطبيع، فأتقنه سلاحًا، وأجاده أسلوبًا، أسلوب الدهن والعهد والوعد والولاء، أسلوب بنوايا كاذبة، أسلوب دهَّان.

لم يكن هذا الأسلوب صعبًا على عميل ماكرٍ فى مواجهة جحافل من السذاجة، جحافل إعتادت على الفُرقة والشرذمة والانقسام، وكان للدهَّان ميراث من الجينات استمدها من أمه سارة، تلك الخَادْمة التى وقع أبوه فى حبها، وكانت سببًا فى انفصاله عن زوجته الارستقراطية الليدى تشابمان، وعاش مع سارة بدون زواج رسمى، وأنجب منها خمسة أطفال منهم لورنس العرب.

ولم يكن أسلوب الدهَّان الأداة المشتركة فقط لكل مّن سار على نهجه، دهَّان بدايات القرن العشرين وكل دهَّان تلاه في القرن الحادى والعشرين، كلاهما له بَسطَةٌ في الجسم، كلاهما يتحدث نفس اللغة، كلاهما يحمل الجانب الأكبر من الجينات الوافدة، كلاهما يهوىَ العمل في الظلام، ويُجيد حبك الدسائس والمؤامرات، لكن أخطر أوجه التشابه فى الدهَّانين كانت بمثابة علامة استفهام أكبر.. الأول كان يؤمن بدور أكبر للثورة العربية فى فلسطين لصالح أطماع الصهيونية العالمية، أما الذين ساروا على نهجه فقد جاهروا بصداقتهم وتعاونهم مع الذي تعتبره الثورات العربية العدو الأزلي.

وماذا عن الدين؟

استبعده الدهَّان من حساباته ومخططاته، كان يتصدر قائمة المحظورات، كان يعى ويؤمن أن الدين هو الخطر الأكبر الذى يهدده، يهدد مساعيه، وهذا الخطر الذى يعنيه، الذى يهابه الغرب ويخشى صحوته، هو الاسلام، لقد ارتاحت نفسه وتفاءل أكثر عندما لمس الحمية على ما يُسمى بالقومية العربية، ووّظفها دافعًا للرغبة فى الاستقلال عن الدولة العثمانية، فلم يكن للوازع الديني ولا للشعارات الإسلامية ولا للأماكن المقدسة مُبررًا يُحرك الثائرين، أو يُشعل أسباب التمرد على الخلافة العثمانية.

وغالباً ما يكون الوريث أكثر تفوقاً، يتفوق فى الادعاء والتلون، يتقرّب إلى التيار الأقوى . فى كل ثورة حقيقية يكون هناك دائمًا التيار الأقوى، وريث الدهَّان يُرائى، يتصنع الورع، وفى الخفاء يُماليء التيارات الأخرى، وبصفقات المواءمات يشتري الدعم من الداخل ومن الخارج..

الخديعة الاكبر أنه لا يوجد لاعب وحيد بهذا الاسلوب، لا يوجد دهَّان وحيد. في كل قُطرٍ دهَّان أكبر، أقطارُنا تتفوق بالدهَّانين المَهَرة، كل دهَّان يسير خلفه فريق من الدهَّانين، يُروجون لباطل وأكاذيب سيّدهِم وكبيرهِم..

حصروا العداوة فى الداخل.

استبدلوا الأعداء التقليديين بعدو واحد فقط .

وهكذا.. كانت ومازالت إسرائيل تُغالط وتروج ضد المقاومة الفلسطينية، تتهم المقاومة بالإرهاب، تُلصقها بكل المُجاهدين الذين يطالبون بحقوقهم وحقوق أبنائهم وحقوق أجدادهم الشرعية فى موطنهم وأراضيهم، وعليه فكل من ينتمى إلى حركة حماس إرهابى، وكل من يرتدى شعار الجهاد إرهابى، وكل من يُجاهر بعضويته للحركة الشعبية هو أيضًا إرهابى، وحتى المتشددون فى فتح لم يسلموا من تهمة التطرف في نظر الدولة العبرية.

هل هي مُصادفة أن تتلاقى الرغبات ؟
هل هي مُصادفة أن تتوافق الاتهامات؟

*****

أنت عربيٌ .. إذن فأنت منبوذ.. مرفوض.. مرفوض حتى فى الأرض التى ولدت فيها، وهاجر إليها الآباء والاجداد .. وحتى لو كنت تنتمى إليها من أعماق الوجدان، وترفع رايتها، وليس فرقاً أن تكون مُسلماً أو مسيحياً.

إذن لماذا تفاقمت وساءت النظرة إلى من يحملون صفة العربية؟! ولماذا تبدلت المشاعر التى كانت مُصوبة إلى الذين يحملون صفة العبرية؟! وانحصرت فى نهايات الألفية الثانية في العرب.

صعدت مكانة اليهود على حساب العرب، تعاظم نفوذهم مع توالى سقوط وتشرذم العرب، تغلغلوا فى أفريقيا، هرول إليهم شعوب آسيا، أقبل عليهم الذين في شبه القارة الهندية .. هؤلاء جميعاً كانوا حُلفاء العرب منذ الخمسينيات، وفي الأيام الخوالى لعبد الناصر، ونهرو، وسوكارنو، وتيتو، وسيكوتورى، ونكروما، وبن بيلا، وبومدين، وفيصل، وكاسترو، وتشافيز.

لم تكن مجرد صدمة لثوابت العرب التاريخية، تلك التى لاحت بوادرها فى العقد الثانى من الألفية الثالثة.

كانت أشبه بالرجفة للذين مازالوا يرددون هذه الثوابت .. مجرد ثوابت فى صفحات موضوعه على الأرفف، أو مُلقاة في أرض النفاق، أو مدفونة في كراتين النسيان.

إنها تساؤلات، وتساؤلات لا تتوقف منذ سنوات، تتزاحم في الرءوس من الماء شرقًا إلى الماء غربًا.

لماذا لم يُكتب للربيع العربي النجاح ؟!

لماذا لا يرى شباب العرب أحلامهم في الواقع؟!

لماذا لم يصل الثائرون العرب إلى غايتهم السامية؟!

من الطبيعي أن يفشل الذين ارتدوا أقنعة الثائرين، ومن المتوقع أن يتورط أكثر ويتهاوى أسرع في عاقبة أمره، الذي غدر ومكر وتلاعب بإرادة الناس، والذي ضحى بإرادة الثائرين بالحق.

وفي النهاية.. هل ينتصر الذي لديه عقيدة، أم يتفوق دائمًا الذي لديه وسيلة..

هكذا.. كان يتسلل اليأس فى النفوس..

هكذا.. كانت ترتفع الشكوى، تلوكها الألسنة فى البيوت والأندية والمقاهى، تتناولها انقسامات ردود الأفعال، بعضها مازال مؤيداً وله أسبابه الشخصية، وأكثرها يُعارض ويرفض ولم يعد فى حاجة للمزيد من الأسباب والقناعات، وتبدو ساحات الشبكة العنكبوتية " سوشيال ميديا " بمثابة الميادين الافتراضية للتنفيس، ساحات لمعارك وصراعات الأطراف.

ولم يكن لطفي وأصدقاؤه ببعيدين عن تلك الأجواء طوال تلك السنوات.. كانوا فى أعماقها .. كانوا جزءًا من المعاناة.

# ٢

بعد صلاة العشاء ليوم الجمعة من شهر أغسطس .. جلس الأصدقاء الثلاثة على مقهاهُم المعتاد بالقرب من المريوطية بشارع الملك فيصل، لم يتبادلوا أطراف الحديث، لم تكن هناك أى رغبة فى ذلك، ولم يُعرف علَى وجه التحديد كم مرّ من الوقت وهم على هذه الحال، انتهوا من مشروباتهم التى اعتادوا على تناولها، كان العاملون فى المقهى على دراية تامة بطلباتهم، يقدمونها لهم تلقائيًا، واعتاد المسئول عن الشيشة تغيير أحجار المعسل لكل من لطفي وخالد.

بينما يبدو شريف مُنهمكًا فى الشات على الموبايل، يرد على تساؤلات فى "الواتس أب"، يُعّلق على بوستات فى "الفيسبوك" .. يبتسم تارة، ويندهش فى أُخرى.. وما بين فينة وأخرى، يتبادلون النظرات، التنهيدات، لكن بلا كلمات، بلا بداية حقيقية لردود أفعال تفسر أي شيء، الاحداث المتلاحقة كان شاغلهم، ويشغل قطاع عريض من الناس، ويبدو بمثابة مسلسل يومي، لم يتوقف في الشهور والسنون التالية، مسلسل إجهاض الحلم، حلم عاشه ومازال يتحسر عليه السواد الأعظم.. استبد اليأس بخالد، ونفد منه الصبر كعادته :

- وحدووه.
- لا إله إلا الله .

رد كبيرهم، رد لطفي دون أن يلتفت أو يُغيّر من وضعية جلْسته وهيئته، وهو مازال يسحب أنفاس الشيشة، وتبعه بنفس الرد شريف، وهو مازال ممسكاً بالموبايل، ويواصل شاته على الواتس والفيس.

وعلى الرغم من أنهم يمثلون ثلاثة قطاعات رئيسية في المجتمع، إلا أن الجانب الرياضي كان العامل المُشترك بينهم، ينتمي لطفي إلى المجال الإعلامي كبيرًا للمذيعين في واحدة من محطات ماسبيرو، كان أيضًا يُعد ويقدم برامج رياضية، وأتاحت له مهنته التعامل مع فئات عديدة تجمعها الهواية والاحتراف الرياضي، واتاحت له فرصًا عديدة للاطلاع والمعرفة، وكان لنشأته دورٌ كبيرفي صقل شخصيته، وُلد في مدينة القنطرة شرق، ثم هاجرت أسرته للاقامة الدائمة في مدينة المحلة الكبرى مع اجتياح الجيش الاسرائيلي لشبه جزيرة سيناء خلال حرب الأيام الستة، تلك الحرب التي حاولوا التهوين من كارثيتها فأطلقوا عليها إسم نكسة يونيو.. وحتى عندما تلقى عرضًا للعمل في المملكة العربية السعودية، قضى ست سنوات في إذاعة أم القرى، عايش خلالها أجواء وثقافات مع أجناس وألوان واتجاهات متنوعة. مهنته وتحدياتها تدفعه دائمًا إلى صقل قدراته بالمزيد من المعرفة والدراسة.

وعليه كان لطفي يتميز بالحديث والحضور في الرأي والمنطق، وكان خالد يمثل القطاع الحكومي في وزارة الشباب، وثالثهم شريف الذي يعمل مستشارًا في قطاع العدالة بإحدى الهيئات القضائية الثلاث.

- إيه آخر التعليقات والكومنتات يا شريف بك.

سأل خالد، وحاول أن يتصنّع ابتسامة على أمل أن يخرج بصديقيه من حالة الاكتئاب التى تستحوذ عليهما، وتزداد يومًا بعد يوم، وبدت حالة شعور عام، فى الشارع، فى العمل، فى المواصلات العامة والخاصة، وانتقلت خارج الحدود إلى البلدان المجاورة.

- لا جديد ياصاحبي.. نفس الكلام .. نفس الخلاف، نفس الاستفزاز، ويبدو أنه نفس الميراث كما يقول دائما أخونا لطفي.

*****

كانت هذه قناعاته..

وهذه ما استقرت عليه طاحونة أفكاره..

طاحونة تساؤلاته..

لماذا اختص الله سبحانه وتعالى هذه المنطقة بالأنبياء؟

ولماذا أرسل رُسله من أولى العزم إلى هذه المنطقة؟

ولماذا نزلت كل الشرائع السماوية فى هذه المنطقة؟

لماذا نزلت الوصايا والصحف والكتب السماوية فى هذه المنطقة دون غيرها؟

لماذا كان العدد الأكبر من الانبياء والرسل إلى اليهود، ثم من بعدهم العرب؟

تذكُر بعض الإحصاءات والاجتهادات، وكُتب وروايات التراث أن عدد الانبياء ورُسل الله منذ بداية الخلق وحتى خاتم الانبياء والمرسلين ﷺ، يصل إلى مائة وأربعة آلاف، وبحسب اجتهادات أخرى قد يقترب العدد من ١٢٤ ألف نبى ورسول، جاءوا جميعا بتكليف من الله لدعوة البشر- من عهد آدم عليه السلام- إلى عبادة الواحد الأحد والتسليم بربوبيته ومالكيته للسموات والأرض. وهذا العدد الكبير والرهيب من الانبياء قد جاءوا على فترات، وفى أماكن متفرقة لكن جميعهم فى منطقة الشرق الأوسط فقط، وربما بعض أطرافها.

كانت أهدافهم ورسائلهم تحمل الهداية والدعوة والاصلاح للذين يتفشى بينهم الظلم والجريمة والفسق والعناد والعصيان، وللذين يكفرون بخالقهم الواحد الأحد الذى سخر لهم كل شىء، وكرمّهم على كافة مخلوقاته، وعليه فليس من المعقول أو من المنطقى أن يبعث الله بأنبيائه ورُسله إلى أقوام يغلُب عليهم الخير، ويتصفون بالأمانة، ويسيرون على هدُي آدم أبو البشر، ويتعايشون فى سلام، وينعمون بالعدل والإصلاح والصلاح.

وهذا هو التفسير المنطقى لأسباب وجوهر بعث الرسل والانبياء إلى الاقوام الذين تتابعوا وتوارثوا العيش فى منطقة الشرق الاوسط .. ونزلت عليهم شرائع ووحىٌ سماوىٌ حسب القدرات والاحتياجات العقلية والثقافية التى كان عليها البشر في تلك الأزمان.

وتكشف أحداث وتوابع التسلسل الزمنى والبعث الإلهى لأنبيائه ورسله أن اليهود هم أسوأ البشر .. كفروا بخالقهم، وعاندوا دعوات أنبيائه ورسله إليهم، خالفوا العهود والوعود، تنكرّوا حتى لمُعجزات الانبياء التى وهبهم الله إياها من أجل إنقاذهم، وعادوا إلى سيرتهم الأولى، فضّلوا أيام العبودية والظلم تحت أقدام الحكام والطغاة، وارتكبوا الجرائم وقتلوا أنبياء الله من إدريس إلى هارون وموسى، وتآمروا على قتل أخاهُم يوسف، وشقيقه بنيامين، صلبوا نبيهم عيسى ابن مريم، وحاولوا قتل محمد بن عبد الله خاتم الانبياء والمرسلين.

ويأتى العرب بعد بني إسرائيل فى الترتيب، ترتيب عدد الأنبياء والمرسلين، وفي ترتيب الاسوأ، وفي حجم الفسق والفساد والظلم والعصيان لأوامر خالقهم ولدعوات انبيائه، وفى مقدمتهم خاتم الانبياء والمرسلين، ولما ارتكبوه ويرتكبونه من جرائم وذنوب أعادتهم إلى عصور الجهل والعصيان، عصر أبوجهل، وأبولهب وما قبلهما، وعصيان ابن سلول ومسيلمة الكذاب، وأداروا الظهور لتعاليم دين الله الخاتم، الدين الذى جعلهم خير أُمة أُخرجت للناس، لكنهم باتوا الاسوأ مع نهاية العقد الثانى فى الالفية الثالثة.

*****

ولماذا الأسوأ أصبح الأقوى، وبات الأكثر تأثيراً، ويكاد يقود العرب والعالم إلى أغراضه ومخططاته ؟

هكذا قال خالد موجهًا تساؤلاته إلى صديقيه، فرد لطفي:

- لأنهم اهتموا بالتعليم، بالبحث العلمى، وسيطروا على الإعلام وتوجيهه لخدمة أغراضهم ومخططاتهم، وأحكموا نفوذهم على الجزء الاكبر من مفاتيح الاقتصاد العالمى ومؤسساته المالية، وتفننوا فى جمع المال وتخزينه وتوظيفه..

وتدخّل شريف باستكمال الجانب الآخر من الجواب:

- وفى المقابل لم يُحسن العرب استثمار وتوظيف مالديهم من ثروات، وأهملوا التعليم والبحث العلمى، وتفرغوا للترفيه والسُّفة والتبذير، وأداروا ظهورهم للدين وعدالة الحكم، فانتشر الجهل والفساد والمرض، وتفرغوا لمحاربة أنفُسهم والتنكيل بشعوبهم وتناسوا قضاياهم التاريخية، وتنازلوا عن الحقوق والمقدسات، وارتموا فى أحضان الصهاينة، فوجد الصهاينة ضالتهم فى حُكام ضِعاف النفوس والإرادة، حُكام يتصهينون ويُحاربون العروبة والدين أكثر من الصهاينة أنفُسهم.

على أن ذلك التفسير لطبيعة شعوب المنطقة وأسباب بعث الأنبياء والمرسلين إليهم، كان صادمًا لبعض الذين تفكروا وتدبروا فيه، وكان منكورًا لبعض الذين يؤمنون بقداسة وقدسية هذه المنطقة التى تشرفت واحتضنت الانبياء ورسالاتهم، ولم يُبال بها الآخرون الذين ارتبطت حياتهم ونعيمهم وأعمالهم بهذا المناخ الآثم الظالم فى بلاط الحكم عبر التاريخ .

لكن التساؤلات والتفسيرات لم تقتصر على بعض الذين يعيشون فى أقطار المنطقة من العرب واليهود، كانت تتردد بشيء من الدهشة والحيرة فى شعوب إسلامية أخرى من غير العرب.

واعتاد لطفي الرد على تساؤلات تتراوح بين الصدمة والاستنكار والدهشة والحيرة والرفض، وتقول هذه التساؤلات:

لماذا فضّل الله المسلمين على غيرهم، ووصفهم بالقول: كنتم خير أُمة أخُرجت للناس؟!

ولماذا فضّل الله اليهود على غيرهم، وجعلهم شعبه المختار؟!

ولماذا هذه العداوة المتوارثة عبر الأجيال من اليهود للعرب؟!

والأهم لماذا يتبادل أنصار الأديان الثلاثة العداوة والبغضاء ويتوارثونها حتى بعد توقف السماء عن بعث الانبياء والمرسلين؟!.

- لا توجد ثلاثة أديان ..

يرد لطفي بادئًا إجاباته بالسؤال الاخير، ويستأنف التوضيح لردوده الصادمة:

- يوجد دين واحد فقط..

**﴿إِنَّ الدِّينَ عند الله الْإِسْلَامُ﴾.. الآية ١٩ سورة آل عمران.**

ثم يرتشف رشفة كبيرة من فنجان النيسكافية، ويتنهد، ويعتدل في جلسته في هيئة إجلال وإكبار، ويقول:

- ليس هناك دين عند الله غير الإسلام، ولم يذكر القرآن الكريم من دين آخر غير الاسلام، لم يذكر المسيحية، ولم يذكر اليهودية بأنهما من الأديان، ولو تعددت الأديان، لتعددت الآلهة، لكن ذلك لا ينفى أنهما من الشرائع السماوية التي أتى بها الأنبياء والمرسلون لدعوة وهداية الناس والأقوام الغابرة إلى عبادة الخالق الواحد الأحد، وهذه الشرائع السماوية نزلت بالتدريج، ومكملة لبناء الدين الخاتم، الدين الإسلامي الذى وضعه الله لعموم البشر، واعتنقه كل الأنبياء والمرسلين منذ آدم عليه السلام إلى محمد بن عبد الله ﷺ..

وعليه، فإن كل ماجاء به الأنبياء والمُرسلون ما هى إلا شرائع سماوية، شرائع من عند الله مُمهدة للإسلام الدين الشامل الخاتم، ويجب على المسلمين وغيرهم أن يؤمنوا بهذه الشرائع التى أنزلها الله على أنبيائه، لأن جميعها لا تتعارض مع روح ورسالة الاسلام، ولأن جميع الانبياء والمرسلين كانوا من المسلمين قبل مجيء محمد ﷺ، وقبل بعثته برسالة الاسلام.

ثم يتوقف لطفي قليلًا، ويجول بنظره بين صديقيه، وكأنه يستعيد تركيزهما، **ويتساءل**:

- إذن ماذا عن اليهودية ؟! وما هي النصرانية أو المسيحية ؟! ولماذا لهما كُتب سماوية وردت في القرآن الكريم .. التوراة والإنجيل ؟!

يبتسم قليلا، ويُجيب:

- هي شرائع وكُتب سماوية لا شك في ذلك، لكن لم يذكرهما الله في قرآنه الكريم بأي صفة من صفات الدين الشامل..

ومما يؤكد على ذلك قوله تعالى:

**﴿.. الآية ٤٨ سورة المائدة .﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**

وعليه فإن الشرائع تختلف، فكل شريعة تختلف عن الأُخرى في الحلال والحرام..لكن الدين واحد وشامل، ويجب أن يكون كذلك، فهو الدستور الإلهي، وليس من المعقول أو المنطق تعدُد الدساتير من الله لعباده، ومن هنا يحسم الله كل ذلك في قرآنه الكريم، الذي تعهد بحفظه وحمايته، بأن الدين عند الله الإسلام..

واتساقًا مع الدستور الإلهي الواحد يكون الإسلام هو دين كل الانبياء والمرسلين، أما الادعاء بأن اليهودية ديانة، والنصرانية ديانة أُخرى، هو إدعاء خاطيء يجب التوقف عنه وتصحيحه، لأن اليهود والنصارى سموا أنفسهم بذلك، ولم يُسمهم الله سبحانه وتعالى نصارى أو يهودًا.

**﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ الآية ١٤سورة المائدة.**

**﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ الآية ١٣٥ سورة البقرة.**

وعليه فهم الذين قالوا على أنفسهم ذلك، وسموا أنفسهم باليهود أو النصارى.

لكن كل الأنبياء والرسل قالوا إنا مسلمون، حتى فرعون قال حين أدركه الغرق :

**﴿حَتَّى إِذا أَدرَكَهُ الغَرَقُ قالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذي آمَنَت بِهِ بَنو إِسرائيلَ﴾ ... الآية ٩٠ سورة يونس**

لماذا لم يقل فرعون وأنا من اليهود ؟!

ولذلك فإن الشرائع السماوية التي أنزلها الله، كانت تباعًا وبالتدريج للتمهيد للدين الشامل الذي يجب أن يعتنقه كل البشر، ويتبعه كل الخلق من إنس وجن، ألا وهو الاسلام..

لكن كيف أقّر وبرهن الأنبياء والمرسلون على هذه الحقيقة ؟

**يقول نبي الله نوح عليه السلام:**

**﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .. الآية ٧٢ سورة يونس**

**ولبنيه يقول نبي الله إبراهيم عليه السلام:**

**﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .. الآية ١٣٢ سورة البقرة.**

**وقال نبي الله يوسف عليه السلام :**

**﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.. الآية ١٠١ سورة يوسف.**

**وقال نبي الله موسى عليه السلام :**

**﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ .. الآية ٨٤ سورة يونس.**

**وقال نبي الله عيسى عليه السلام :**

**﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**

**.. الآية ٥٢ سورة آل عمران..**

ثم تأتي الآية الجامعة التي يُقر فيها كل الانبياء بأنهم مسلمون، ودينهم هو الإسلام:

**﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.**

**الآية ١٣٦ سورة البقرة..**

وبمنهج مُكمل وشامل لكل الشرائع السماوية، جاء محمد صل الله عليه وسلم خاتما لكل الانبياء والمرسلين، ويحمل شريعة إسلامية تدعو إلى دين الله، دين الاسلام.

وعليه فكل من آمن بالله، وبكل نبي بُعث فهو مُسلم..

*****

فى كل جولة من هذه المناقشات، يدب الخلاف بين شريف وخالد حول صيغة الماضى فى قول الله سبحانه وتعالى: "كنتم خير أمة أُخرِجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر". وفى تفضيل الله للمسلمين على سائر الأمم، فيتدخل لطفي لاحتواء الخلاف بتفسيراته :

- صيغة الماضى تعود لحالة الإيمان الحقيقى- التى كان عليها المسلمون الاوائل من صحابة رسول الله ﷺ وما بعدهم حتى بدايات الخلافة العثمانية، وعندما ضعُف الوازع الدينى فى نفوس المسلمين بعد ذلك، تهاونوا واستهانوا بإسلامهم، ورضخوا للأعداء الذين تآمروا عليهم وعلى دينهم- وإلى الإيمان بأنهم جميعا ينتمون إلى أمة الإسلام التى تأمُر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فليس من الفضل، ولا من الاسلام أن يتشرذموا، وينقسموا إلى مسميات مثل مصرى، سعودى، سورى، تركى، باكستانى، جزائرى، ماليزى، أندونيسى، سنغالى، شيشانى .. إلى آخر هذه المسميات التى شجعهم عليها الاعداء، وجعلهم يتقاتلون بها ولا يقتلون إلا بعضهم البعض. بل إن الاعداء يقاتلون المسلمين بالمسلمين، حدث ذلك فى سنوات الاحتلال والاستعمار، ويحدث الآن فى سنوات الاستقلال المزعوم.

كيف ذلك؟ .. سأل خالد :

- التاريخ يرصد ذلك، والتاريخ لا يكذب، وتؤكده حقائق الوقائع والاحداث منذ هجمة المغول والتتار، ثم عادت الكُرّة مرة أخرى بهجمة الغرب الاوروبى التى وجدت فرصتها في غروب شمس الخلافة العثمانية، ووصلت درجة الهوان

والاستهانة بتقسيم الشرق الاوسط والشرق الأقصى بما يسمى باتفاقية سايكس بيكو.. بل إنهم جندوا أبناء هذه المناطق وتلك الدول والدويلات المُقسَّمة لتثبيت دعائم الاستعمار الغربى الاوروبى، والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفى مثلا ما فعلته بريطانيا فى تثبيت قواعدها واحتلالها لمستعمراتها فى قلب الشرق الأوسط إلى أقصى الشرق، وإلى أطراف الجنوب فى الكرة الارضية، فهى قد احتلت مصر لأكثر من ٧٤ عاماً بأكثرمن ٤٠٠ ألف جندى أغلبهم من المصريين وشبه القارة الهندية لتدعيم أركان حكمها واحتلالها لمصر، ونفس الجيش الذى حمل راية وشعار التاج البريطانى، وقام باحتلال السودان كان قائده فقط هو الانجليزي جوردون، أما الجنود فكانوا من مصر والهند والسودان، وأيضاً استعان جيش التاج البريطانى بالعديد من مُسلمى العراق وأفريقيا لقمع ثورة العشرين فى العراق.

ولم يكن الطرف الآخر بأقل سوءًا من جراء الإتفاقية المشؤمة، فعندما احتلت فرنسا سوريا، كانت تواجه الثوار السوريين بقيادة يوسف العظمة فى معركة ميسلون بجيش يتكون أغلبه من السوريين وعرب آخرين وبعض المسلمين من افريقيا الوسطى، ومثلما قمع الاحتلال الفرنسي ثورة المجاهد عبدالكريم الخطابى فى المغرب بجنود من المسلمين واليهود المغاربة، وبهم قضى على جمهورية الريف فى المغرب، وقام أيضًا بنفس الجريمة مع المقاومة الجزائرية التى قادها الأمير عبدالقادر، وكان أغلب جنود فرنسا من الجزائريين يقودهم كولونيل جزائرى يدعى ابن داوود.

ولم تكن خيانة ابن داوود لأبناء جلدته فريدة من نوعها، بل كانت هناك نماذج كثيرة من المتآمرين والمتعاونين مع الاعداء والمستعمرين ضد المجاهدين والثوار، فالذى قبض على المجاهد الشهيد محمد الدغياجى فى تونس، ولعب دورًا كبيرًا فى تثبيت الحكم الفرنسى ليس فرنسيًا، لكن تونسي يُدعى عمّار بن عبد الله، وحتى فى ليبيا كانت هناك فرقة تُسمى الباندا تضم عملاء وخونة كانوا يرحبون بالاستعمار الايطالى، ويزودون الطليان بالمعلومات والاسرار عن المجاهدين الذين يقودهم شيخ المجاهدين عمر المختار.

والغريب أن تاريخ الخيانة والتآمر لصالح الاعداء أعاد نفسه مع بدايات القرن الحادى والعشرين، وكان ذلك خلال الغزو الامريكى للعراق، ولم يتحقق الاحتلال الأمريكى للعراق إلا بتعاون عراقيين ومعهم أكراد، الأكراد الذين ينتمى إليهم أحد أعظم قادة المسلمين فى التاريخ، الناصر صلاح الدين محرر القدس من العدوان الصليبى، لكن الاكثر إثارة للعجب والدهشة هو ارتداء بضعة آلاف عرب للبزات العسكرية الاسرائيلية، ويحاربون إخوانهم الفلسطينيين في صفوف جيش الاحتلال الصهيونى، وجميعهم من مختلف الأعراق الموجودة على أرض فلسطين المحتلة.

هؤلاء ينطبق عليهم قول الله تعالى :

- الذين يتخذون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، أيبتَغون عندهُمُ العزة فإن العزة لله جميعًا ".. ١٣٩ سورة النساء

سقطت ودائمًا ما تسقُط الأقنعة..

ظهرت ودائمًا ما تظهر حقيقة الوجوه الزائفة

وجوه تكالبت على الحلم، حلمٌ لربيع عربى حقيقي.

عميل، كذاب، منافق.. كبيرهم دهَّان.

تحالفوا مع الكيان المزروع لإبادة قوم الجبارين.

تصاعدت مساعي الهرولة إلى التطبيع.

تصاعدت حملات الترويج لما يُسمى بصفقة القرن.

*****

لا يتوقع أكثر المتشائمون ذلك الهوان، وهذا الحال المُتردي.

لا يتنبأ أمهر المتنبئون، وحتى لو صدقوا، ذلك المآل للحلم العربي.

حتى لو كانت الجدّة فانجا أو بابا فانجا كما كان يُنادونها البلغار قبل وفاتها.

فانجيليا باندينا كوتشيروفا، عرّافة بُلغارية وُلِدت محرومة من نعمة البصر، لكنها أبهرت العالم بتنبوءاتها التي تحققت حتى بعد وفاتها بسنوات:

- تنبأت بوقوع تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر.
- تنبأت بوصول أحد أصحاب البشرة السمراء لرئاسة أمريكا.
- تنبأت باندلاع ثورات الربيع العربي في دول الشرق الأوسط.

ومن تنبؤاتها التي يترقبها العرافون وموريدوها:

- انهيار الدولار، وسيطرة الصين على العالم اقتصاديًا وعسكريًا.
- ذوبان الجليد في الشمال والجنوب، وغرق الكرة الارضية عام ٢٠٣٢

# ٣

لم يتوقع لطفي هذه القناعات فى تفكيره فى يوم من الأيام، لم يتخيل شريف أن تتغير موروثات أفكاره التى استقاها إلى عهد قريب من البيت والمدرسة ودور العبادة، ورحب خالد بتفسيرات جديدة ضاعفت من نظرته وواقعيته لكل ما يدور حوله فى حركة الحياة، وجعلته يزداد ميولاً إلى المدلول العملي لمُقتضيات المصلحة، فالمصلحة عنده وعند أمثاله وهُم كثيرون، هى رأس البرجل التى تدور حولها الحركة، المصلحة هى حجر الرحىَ العملاقة، لا تتوقف لأن الثيران لا تصل إلى خط النهاية فى دوائر الرغبة والشهوة، وهاتان البذرتان موجودتان فى كل النفوس، وهما الباب والشباك فى كل المخلوقات، ومن خلالهما يتسلل الشيطان وأعوانه لكى يمارس هوايته، ويُنفّذ القسم الذى أخذه على نفسه أمام الله، ومن أجله يعيش إلى يوم يُنظَرون.

- وهل النفس مسئولة عن الخير والشر، وليس الشيطان ؟!

**سأل** خالد باستنكار، وتعمد أن يبدو فى هيئة الاندهاش، وعدم الرغبة فى التصديق، واعتدل بهيئته فى مواجهة لطفي الذى اعتدل هو الآخر، وكأنه يتأهب لجدال طويل:

- نعم .. النفس مسئولة، وهى التى أغوَّت الشيطان نفسه لكى يعصىَ الله.
- إزاى الكلام ده.. يعنى الشيطان بريء من أفعال البشر ؟!

هكذا سأل شريف، وانضم إلى خالد فى مشاعر الاستنكار والدهشة.

- أنا لا أبُرئ الشيطان عما يرتكبه البشر من جرائم وأخطاء.. لكن المسئولية الاكبر تقع على النفس التى تتحكم فى كل شيء، فى الإنسان، وفى سائر المخلوقات بما فيهم الشيطان..
- إزاى .. وإيه الدليل على كلامك؟!

سأل خالد بمزيد من الدهشة والاستنكار.

وضع لطفي لىّ الشيشة جانباً، وأهّبَ نفسه لشرحٍ طويل، وعميق، وجحظت عيون صديقيه، يتأهبان لسماع مبررات يتشككان فى واقعيتها قبل أن ينطق بها .. وقبل أن يقولها، سمعوا صراخًا وشتائم واستغاثة قادمة من ناحية شارع الأهرام على امتداد طريق المريوطية، كانت الجلبة تُصاحب "توك توك" يقوده سائقه بأقصى سرعة، بينما يرقُب الذى يجلس بجواره الطريق، ويُلوّح بساطور محذراً كل من تسول له نفسه بالتدخل، وانهمك ثالثهما فى ركْل الضحيةَ الذى كان مُتشبثاً بكلتا يديه بعتبة وإكصدام التوك توك، كان التوك توك يسحب الضحية على الأرض وهو يصرخ " إلحقونى..إلحقوني حرامي..حرامي.."..

كان المشهد مثيرًا لكل شئ .. إلا النخوة .. لم تتوقف الركلات والعنف إلا عندما خارت قواه تماماً، وسقط مُثخناً بجراح وسجحات بالغة فى ساعده الأيمن وساقيه، سقط الضحية بالكاد أمام مقهى المريوطية الذى يكتظ بالرواد، وانطلق التوك توك بغنيمته ليختفى فى زحام شارع فيصل.

هرول الأصدقاء الثلاثة، ومعهم بعض رواد المقهى، تظاهروا بالصدفة والدهشة، تظاهروا بالهرولة إلى الضحية لاستطلاع الأمر، وادعاء مَد يد العون .. وكان كل ذلك ما تبقى من نداء النخوة، نخوة ما فَتئَ العرب يتغنون بها فى تُراثهم وحكاياتهم وأساطيرهم السالفة..

كان طبيبًا شابًا، يملؤه الحماس والرغبة فى التفوق وإثبات الوجود، وخلال وجوده فى العيادة التى يعمل بها مساعدًا لأُستاذه الاستشارى الكبير، تلقى تكليفًا بالذهاب إلى منزل أحد مرضى العيادة لإنقاذه من غيبوبة مرض السكري فاجأته، ولأن العيادة تقع فى أحد المبانى المقابلة لمستشفى الهرم، ولم تكن بعيدة عن منزل المريض الذى يقع على اليمين من شارع الملك فيصل من طريق ترعة المريوطية مباشرة.

فضل الطبيب الشاب أن يذهب إلى المريض راكبًا قدميه، لم يلتفت إلى هتافات العشرات من سائقى التوكتوك وهم ينتشرون كالجراد على أطراف ونواصى طريق ترعة المريوطية، فهو ليس من هواة هذه الوسيلة التى باتت واحدة من أدوات تَفَشِّي الجريمة، ولسوء حظه كان مشغولاً تليفونيا بمراجعة بعض الترتيبات مع زوجة المريض، وقبل أن يُنهى مُكالمته ببعض النصائح والارشادات الطبية، كان التوكتوك يتسلل خلفه ليخطف أحدهم التليفون من يده.

كان محظوظًا، لم يفقد شنطته التى اعتاد أن يرتديها خلف ظهره، لكنه فقد ساعة يده من جراء سحبه مسحولاً وهو يحاول إيقاف التوكتوك لاسترجاع تليفونه، فكلاهما يمثلان له قيمة معنوية وأهمية عملية كبيرين، كانت الساعة هدية والدته بمناسبة حصوله على بكالوريوس الطب بتقدير جيدجدًا، والتليفون ثمنه أغلى وماركته أحدث، وتلقاه هدية من والده لكى يُعينه فى عمله وارتباطاته فى عالمه المهنى الجديد.

- مَعْلش يا أُستاذ، المهم سلامتك.
- أنا طبيب، دكتور أكرم، وكنت رايح لزيارة مريض فى بيته.
- ربنا ينتقم منهم اللى عملوا فيك كده.
- آدى اللى بناخده من التوكتوك وبلاويه.
- إلهى ينتقم من اللى جاب التوكتوك، واللى سمح بيه.

كالعادة ترددت هذه العبارات التقليدية من الذين أحاطوا به، وتبادلوها معه للتهدئة والمواساة.. ولم يستطع الطبيب الشاب منع دموعه وهو يحاول تضميد الجروح والسجحات فى ساعديه وكفيه، وتغلبت عليه عِزَّة النفس أمام إلحاح لطفي وصديقيه بمصاحبته لأقرب محل للملابس الجاهزة لاستبدال بنطاله الذى تمزق عند ركبتيه، لكنه لم يتمالك بنهنهاته ودموعه وقال بحسرة:

- أنا مش زعلان إلا على ضياع التليفون، ميهمنيش قيمته المالية بقدر أهميته فى شُغلي، أرقام تليفونات ومعلومات وملفات مهمة مخزّنها على الميمورى، ومش عارف من غيرها هاعمل إيه.

- اعمل محضر، وأنا مستعد أروح معاك لقسم الشرطة لإثبات الحالة، لكن بعد ما ترجع من زيارة المريض.

رد لطفي على الطبيب الشاب، ووعده بالبحث عن ساعته المفقودة، وكل منهما اتجه عكس الآخر فى التو واللحظة.. سار أكرم إلى مريضه.. بينما اتخذ لطفي مساره فى اتجاه شارع الأهرام، وصوب عينيه لأسفل فى كل الاتجاهات باحثاً عن الساعة المفقوده، يشاركه المهمة صديقاه فى الذهاب والعودة، وعلى الرُغم من أنه لم تكن لديهم معلومات عن مواصفات الساعة، إلا أن ردودهم كانت واحدة، على استخفاف وفضول البعض من المارة وسائقى التوكتوك:

- هههههه.. إيه اللى ضاع منكم.
- ساعة ..وقبلها الشهامة والنخوة.

*****

كان سبعيني العمر والهيئة، إلا أنه للوهلة الأولى كان لديه شيءٌ ما، هذا ما أخذه أكرم من انطباع أوليّ، فقد كان الرجل يحتفظ بقليل من هيبة الماضى، مازال كامناً فى زاوية بعيدة جدًا فى طبقات ملامحه، وفى ثنايا هيئته، لم يكن ذلك المتدهول في هندامه، بل كانت أجواء النظافة الشخصية بادية عليه بشكل خاص، وعلى أجواء مسكنه المتواضع فى الدور العاشر.

أخذ أكرم هذه الانطباعات الأولية وسط أنفاسه المتلاحقة، فلم تمنعه عبارة "المصعد عطلان" التى واجهته في مدخل العمارة، ولم يتأثّر بعبارات اللوم التى ألقاها بواب العمارة على السكان، عبارات مُعتادة، وشكوى دائمة في عمارات وأبراج إرتفعت بالمخالفة للقانون، أُقيمت تحت سمع وبصر المسئولين في الاحياء والمحليات، وراجت تسعيرة الرشاوي لتوصيل خدمات البنية الاساسية.

- السكان مش عايزين يصلحوه، مش قادرين يدفعوا فواتير المية والكهربا.

تحامل أكرم على نفسه وعلى أوجاعه، وصعد درجات السلم دون توقف حتى لإلتقاط الأنفاس، لكنه شعر ببعض الارتياح بعد لحظات من دخوله بيت المريض، أدى واجبه المهنى كما يجب فى إفاقته من غيبوبة السُكري، واضطر أن يستجيب لتوسلات مريضه، ولحميمية مشاعر الترحيب من زوجته، بالبقاء معهما لبعض الوقت لكى يقدما له واجب الضيافة التى يستحقها.

لم يكن فى حاجة إلى إرهاق تفكيره حول انطباعاته الأولية، اتجهت بوصلة استنتاجاته إلى زوجة الشيخ السبعينى، كانت شابه سورية، في مُنتصف عِقّدهَا الثالث، فقدت عائلتها بالكامل فى واحدة من مجازر الحرب الأهلية، وقعت واحدة من أشد ويلاتها فى مدينة حلب، وصلت غَيداء- وهذا اسمُها -إلى مصر بإعجوبة مع الهاربين بأرواحهم، مرت عليها أيام وليالٍ سوداء وأشد قسوة، أجبرتها رغبات ومُلاحقات ذئاب بشرية على تغيير هيئتها والتخفي في ملابس الرجال.

لا تعرف كم من الشهور والسنون عاشتها كعب داير بين المدن، في الإسماعلية حملت الاثقال مع الصبية والرجال لكي تُدبر قوت يومها، وفي الزقازيق شاركت في جمع المحاصيل وجني الثمار لكي تتدبر احتياجاتها الضرورية من ملابس وتواجه أعباء التنقلات، في العاشر من رمضان تورَّمْت قدماها من كثرة الوقوف طوال ساعات الوردية أمام ماكينات تعليب مُسليات ومأكولات الاطفال، وفي السادس من أكتوبر كانت تتلمس الاستقرار فى عمل ومسكن وسط بعض المهاجرين من أبناء بلدتها..

في تلك الظروف القاسية للمهاجرين الفارين من الموت، يواجهون ما هو أسوأ من أجل أطفالهم وحُرمة أعراضهم، يقبلون بأي عمل، ولا يعترضون على أي أجر، يتجرعون المهانة والاهانة لتوفير الدواء لمرضاهم، ولتدبير لقمة العيش لبطون أطفالهم الخاوية، والغطاء لسُترة نسائهم، وكأنهم يستقبلون في راحتي أيديهم جمرٌ من نار ناصع لونه البرتقالي.

وعليه تُصبح تجمعاتهم وظروفهم أرضية خِصبة أمام تيارات مُتطرفة للاستقطاب، وينشط عُملاء ومخابرات أعداء الأمة لتجنيد الرجال والشباب في أعمال الارهاب وتنظيماته، مناخ لا يوجد أفضل منه للحصول على المرتزقة، وهل يوجد أيسر من ذلك يقدمه العرب للأعداء على طبق من ذهب، يتجولون في خيام الايواء، وفي تجمعات المهاجرين، وفي ضوائق المحتاجين، وداخل عشوائيات المنكوبين، يغسلون العقول من وراء ستائر كاذبة، وهيئات مُضللة بالخير والانسانية والرحمة، هيئات تستغل أي شيء لكي تصل إلى فرائسها، وتنجح في مهامها، نجحت في أفريقيا، واثبتت كفاءتها في دول أمريكيا اللاتينية، وتفوقت في أفغانستان والعراق، وفي أوساط الجاليات التي تنتشر في القارة العجوز..

ومنذ ثلاث سنوات أو أكثر رشحها أحدهم لكى تكون زوجة لهذا الشيخ الأرمل، كانت هذه الوسيلة بمثابة قَشّة الإنقاذ لآلاف السوريات الهاربات من ويلات الحرب في سوريا، ووجد آخرون من مُحترفي التجارة والاسترزاق في كل شيء وسيلتهم لاستغلال مأساتهن، ولم يكن لها ولغيرها من خيار آخر سوى القبول، وحصلت فى يدها على مهرها، كانت أكبر ثروة تلقتها منذ أن وطأت أقدامها أرض الكنانة، ألف جنيه عدًا ونقدًا !!

- صحيح، هناك من هُن أفضل منى حالاً، وأوفر حظًا فى الزواج.. لكننى كِنت محظوظة عن أُخريات قَبضّن ٥٠٠ جنيه فى المهر.. ونحنا جميعًا فى الهوا سوا فى الحقوق الشرعية.

هكذا أبدت غيداء ارتياحها ورضاها، وكان ذلك عندما تدخلت فى حديث زوجها لأكرم، ولم يصعُب على أكرم أن يستنتج الباقى، فهذه السورية الشابة تملك حظًا كبيرًا من روعة الجمال والقوام، لا تأخذ من هذا الزواج سوى السكن فى الطابق العاشر، ولقمة العيش المتواضعة، لم تحظ بشىء آخر من حقوقها الشرعية، لم تنعم بمعاشرة زوجية تروى الحاجة الطبيعية لزوجة دخلت عش الزوجية مع بدايات عِقْدَها الثالث..

ولم تكن غيداء سوى حالة واحدة من ملايين أجبرتهم الحرب الأهلية على الهروب أو الهجرة، تركوا كل شيء خلفهم، وضعوا أرواحهم ومصير مستقبلهم رهن المجهول في البلاد التي قصدوها، فقدوا في رحلتهم المأساوية مئات الآلاف من الاطفال والنساء والعجائز، لم يسلم العديد منهم من الموت، ماتوا من الجوع، ماتوا برصاص حرس الحدود، مزقت أجسادهم الاسلاك الشائكة، صعقتهم أُخرى مُكهربة في دول لا تطلب المزيد من أعداد المهاجرين، أغرقتهم أمواج البحار التي لم تقوَ على عنفوانها مراكب تهريب بدائية مُتهالكة، لم تمنع خيام وكالات غوث اللاجئين عنهم شبح الموت بسقيع الشتاء وزمهريره، لم تقهم المعونات الطبية شر الموت بالفيروسات والأوبئة التي تنتشر في مخيمات تحيط بها قنوات ومستنقعات صرف صحي بدائية..

*****

١٨ ديسمبر اليوم العالمي للمهاجرين.

أعلنته الامم المتحدة مناسبة سنوية في نهاية الالفية الثانية، وقد أقرّت الاتفاقية الدولية لحماية حقوق العمال المهاجرين وأُسرهم تفسيرًا يقول: كل من يُقيم في دولة أجنبية لمدة عام ينطبق عليه وصف مُهاجر.

وفي نهاية العقد الثاني من بداية الالفية الثالثة، أصدرت الامم المتحدة آخر إحصاء للمهاجرين عن أوطانهم التي وولدوا وعاشوا فيها جُل أعمارهم، فتجاوز العدد مئاتي مليون مُهاجر عبر العالم، وكان العام الذي سبقه هو الأعلى، فقد أدت ضراوة الحروب، وجرائم الاضطهاد الديني والعرقي، وتوابع الكوارث الطبيعية وقسوة المعيشة أو البحث عن عمل إلى زيادة أعداد المهاجرين، فارتفع العدد إلى مئاتين واثنين وسبعين مليونًا.

وكان عام ٢٠١٧ هو الاشد قسوة على المهاجرين، وشاهد العالم أكثرها مأساوية في السوريين ومُسلمي ماينمار، وفي ذلك العام بلغت نسبة النساء المهاجرات ٤٨% من مئاتين وثمانية وخمسين مليونًا مُهاجرًا، وكان من بينهم ستة وثلاثون مليونًا من الاطفال، ومنذ عام ٢٠١٤ تؤكد وثائق المنظمة الدولية للهجرة وفاة اثنين وثلاثين ألف مُهاجر، كان نصيب أكثر من نصفهم الموت غرقًا تحت أمواج البحر المتوسط خلال رحلات الهجرة والهروب بمراكب مُتهالكة.

*****

المهاجرون، باتوا أداة أُخرى من أدوات كل دهّان.

لم يجد الهاربون بأرواحهم الترحيب الذي يحتاجونه، وجدوا عنصرية الاستقبال، تعرضوا للإزدراء والتضييق والخناق، ومثلما وقع الكثيرون منهم فريسة لعصابات الابتزاز وتجارة الرقيق، فقد تاجرت بمأساتهم الحكومات، وقبضت الثمن في صورة معونات دولية، استخدمهم كل دهّان وأعوانه ورقة ابتزاز، ابتزاز دولي للمعونات، وابتزاز بالمواقف السياسية، استفاد منها كثيرًا، وأجاد استغلال مأساتهم..

- أنا من سوريا، وما عِندي شيء، ياريت تساعدني من شان الله..
- يا أستاذ نِحنَا عائلات سوريات، وبنجمْع مَصَاري علشان ندفع إيجار السكن بلا يطرُدنا صاحب العقار، إعطينا من فضل الله عليك..
- لو تِسمَح أخي ممكن أَطوَّقلك العربية واللي اتجُود بيه، الله يعطيك العافية..
- باللهِ عليك تشتري مني، هادي حلويات شامية مشهورة، ياريت تجبر بخاطري..
- الله يسلّم عُمرك، نحنا سوريات، وما عِدنا حدًا يَعولنا، ممكن ...." ثم يجهشّن بالبكاء، وتنهمر دموعهن "..

هذه كانت نماذج من حالات التسول، وبعض صور استجداء السوريين والسوريات لمساعدات الناس في الشوارع، وما أصعب أن يتخَلى الذين اشتهروا وتعارفوا بالشهامة والنخوة وعزة النفس عن هذه الصفات لكي يحصلوا على ثمن العيش، ولكي يوفروا أُجرة السكن، وقد كانوا مُجبْرِين على ذلك، ولم يكن لديهم أي خيار آخر، فقد كان ظلام اليأس حالكًا في وضح النهار، وأُغلِقت أبواب العمل والامل في العيش الكريم، ولم يكن أمامهم سوى طرق أبواب القلوب الرحيمة..

وإذا نجح بعضهم في إيجاد عمل، أو تكوين مصدر للرزق عن طريق التجارة، أو فتح مطاعم للمأكولات الشامية الشهيرة، فإن عنصرية أهل البلد تنتظرهم، يلاقون منهم ويلات الحروب النفسية والتضييق والتنمر، يستوي في ذلك أخوة العرب، وعداوة الغرب..

وعليه راجت تجارة الرقيق في المنكوبين..

وانتشرت حالات الزواج الرخيص حتى من القاصرات..

ولم تُمانع جميلات الشام حتى لو كان زواجًا صوريًا..

وكيف يمكن لشيخ سبعينى أن يقوم بواجباته الطبيعية بعد أن وصل لأرذل العمر، وحتى لو كان هناك بصيص من الأمل بمساعدات وعقاقير أخرى، فإن هذا الأمل قد ضاع، وضاع للأبد بخوار وتهاوى قواه مع مرض السُكرى، وهذا المرض قد تفاقمت حدته وتوابعه فى دماء الزوج منذ أن تنكّرَ له ولداه، ابنه وابنته اللذين أقاما دعوى قضائية بالحجر عليه، نجحا فى الاستيلاء على أمواله وأملاكه التى كونها طوال خدمته فى القوات المسلحة، تقاعد الرجل وحمل رتبة لواء سابقًا، شارك فى ثلاثة حروب ضد إسرائيل، لكنه لم ينتصر فى معركته مع ولديه، وكل ما استطاع أن يحتفظ به هو شقته بالدور العاشر ومعاشه الشهري.

- فعلاً .. وعلى رأى المثل .. اللى يشوف بلوة غيره .. تهون عليه بلوته.

بهذه الكلمات المُعبّرة أنهى أكرم كلامه عن حكاية المريض الذى زاره، كانت زيارته أحد أسباب واقعة عصابة التوكتوك معه، لمعت عيناه بالدموع، حاول أن يدير وجهه بعيدًا عن مرمى عيون لطفي وشريف وخالد..

ولأول مرة تستهويه فكرة الجلوس على المقهى، فلم يكن من هواة هذه العادة أو مُريديها، ولم تتعد محاولاته السابقة عدد أصابع اليد الواحدة .. لكن هذه المرة وجد نفسه مدفوعًا وباطمئنان لتلبية دعوة لطفي وصديقيه، وامتد بهم الوقت إلى قُرب منتصف الليل، وهم يستمعون إلى تفسيرات لطفي حول النفس البشرية.

- لا أعتقد أن هناك دليل عِمليّ فى الوقت الحالى أفضل مما حدث، ومما سمعناه، ومما شهدناه للتأكيد على أن النفس هى المسئولة عن عمل الخير، وهى المسئولة عن فعل الشر وارتكاب الاخطاء، ولعمل المُحرمات.

والنفس تكبُّرت وتعالّت، وقادت الشيطان إلى الطرد والحرمان من رحمة الله:

**" أَأَسجُد لمن خَلقت طينًا ".**

وأول جريمة فى تاريخ البشرية سببها النفس، قابيل يقتُل هابيل، ويوثقها القرآن الكريم:

**"فَطَوّعَت له نفسُهُ قَتلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصبَحَ من الخاسِرينَ"**

وعليه فإن الخير من عند الله.. والشر من أنفُسنا. وبعض الأنفُس لا تتوقف عن الشر والسوء.. هكذا أيضا يوثقه القرآن الكريم في سورة يوسف:

**" وما أبُرئُ نفسيِ إنّ النّفس لأمارُة بالسُّوء إّلا مَا رَحَم ربى إن ربى غَفورٌ رحيُمْ"**

خالف نفسك وما تهوى.

فالخيرُ يأتى بمخالفة النفس والهوى.

ولعل فى واقعة الخليفة العادل عمر بن الخطاب مع رجُل كافرُ ذاع صيته بعلم الغيب، كان قد عقد العهد على مخالفة نفسه، فلمس ابن الخطاب ما فيه من صفاءٍ ونوّرانيات، ودعاه إلى الإسلام، فأبت نفسه على الشهادة بالتوحيد وبالرسالة المحمدية، فما كانت من ألمعية عمر إلا أن أعاد تذكيره بعهده السابق بمخالفة ما تُسّوِل له نفسه، فخالفها الرجل ودخل الإسلام.

*****

ولم تنحصر النفس البشرية فى السوء فقط، أو فى المعاصى فقط، أو على الجريمة فقط .. لكن الخالق خَلقّها فى أحسن خِلّقة، ووّهبها شيئًا لم يَهبَه لسائر المخلوقات الآخرى، وَميّزها به عليهم جميعًا بما فيهم الملائكة .. الاختيار .. والاختيار فضيلة، وهى من أفضل نِعْم الخالق على البشر .. ويُجْمِل القرآن الكريم كل ذلك، ويوثقه بآيات كريمات فى سورة الشمس:

***ونَفس وماسوّاهَا. فألَهَمَهَا فُجُورَهَا وتقواها * قد أفلح من زكَّاهَا* وقد خاب من دسّاها***

إذن خاسر من يترك نفسَه على هواها، ويترك جنوحها الفاجر نحو السوء.

بهذه العبارة لخص الطبيب الشاب أكرم ما عَناه لطفي فى ختام كلامه.. وأيده لطفي بارتياح، وأومأ برأسه وبحركة التسليم والاقتناع كلا من شريف وخالد..

وكانوا قد اقتربوا من قسم شرطة الأهرام.

# ٤

الوحشة والرهبة يسيطران على الطبيب الشاب منذ اقترابهم من الحواجز والكتل الاسمنتية التي احتلت الشارع، قطّعته إلى أجزاء ونقاط تفتيش وتعجيز قبل بلوغ بوابة القسم بعشرات الامتار، اضطروا صاغرين إلى تقديم هوِيّاتِهم، أجابوا على نفس تساؤلات المخبرين، ثم أُمناء الشرطة، ثم ضُباطها حتى وصلوا إلى النوبتجية..

في نوبتجية القسم عالم آخر، هو الجانب السيىء لكل وهلة أولى، هو السوء الذي تأمُر به النفس البشرية، وهل في أجواء وأركان أقسام الشرطة سوى الجرائم، أطرافها إما مجرمون أو ضحايا.. رجال الشرطة هم الطرف الأقوى، هم المكافحون الذين من المفترض أن يكون دورهم، هو استرداد حقوق الضحايا والشاكين بتقديم المجرمين إلى العدالة..

وليس من سمع به كمن رآه في الواقع، هي المرة الأولى التي يدخل قسم شرطة في حياته، لقد ذهب طواعية إلى من تعرّضت سُمعته وأفعاله للتشويه في الداخل والخارج، لم يكن أكرم يتوقعه بهذه الفظاظة، ولم يتخيله بتلك الفظاعة، وبهما استقبلته أجواء النوبتجية، ولولا أنه كان يستمد القوة والتماسك من مصاحبة التُلاثي لطفي وشريف وخالد، لعاد بأدراجه من حيث أتى لكي لا يشهد أجواء لم يعتدها، أجواء من الجدال والصراخ والعويل لشاكين ولشاكيات باكيات، والأُمناء يُدوّنون الأقوال في المحاضر، غير مُبالين بتلك الدموع والشهقات.

هل لأنهم في النوبتجية اعتادوا على ذلك؟، أم لأن التجارب تؤكد على بعضها بوصف " دموع التماسيح ".. وعلى مشهد من الجميع يتوسل مُتهمان لأحد الضباط من داخل القفص الحديدي المُلحق بالنوبتجية لكي يسمح لهما بالتدخين، وما بين فَينة وأخرى يخرج رئيس وحدة النوبتجية من كُشك زجاجي بمساحة لا تزيد عن ستة أمتار، ومن باب إثبات الوجود، يصرخ بتعليمات تتخللها ألفاظ فاضحة ، وكلمات جارحة لكي يحقق شيئا من الهدوء..

في تلك الأجواء، استخدم شريف صفته وهيئته القضائية مع المأمور للتعجيل بعمل محضر في واقعة التوتوك، وبعد أن أنهى أمين الشرطة المهمة، قام بتسجيل المحضر في دفتر الأحوال:

- خلاص يا دكتور .. خُد رقم المحضر وتاريخه..

تسلم منه أكرم الرقم، وبدت عليه الحيرة، وسأله قبل أن ينتقل الأمين إلى شاكٍ آخر:

- وإيه اللي هيحصل بعد كده يا حضرة الأمين..
- ربنا يُعينك ..

لم يتلق أكرم إجابة مُقنعة عن تساؤلاته، وعن مصير المحضر، لكن شريف توقع بخبرته القضائية أن يكون مصيره الحفظ الاداري، إلا أن مأمور القسم نصحه بالذهاب برقم المحضر ومعه بيانات التليفون المفقود إلى مباحث الاتصالات، وبعبارة لم تُغير شيئًا من شواهد اليأس والاحباط، قال له:

- لعل وعسى.

انضم الطبيب الشاب إلى الأصدقاء الثلاثة، أصبح الوجه الرابع في المجموعة، وجد في نفسه ارتياحًا لهم، تآلف معهم سريعا، لمس المصداقية في تعاطفهم وتعاملاتهم معه، لم يشعر بفارق السنوات معهم، شعر بحاجته لبعض الوقت مع هذه الصحبة، وهذا البعض لا يعوقه في شيء مثلما لا يعوقهم، فهو يلتقي بهم ليلًا وبعد مواعيد عمله في العيادة .. تتجه بوصلة مشاعره أكثر إلى لطفي، وجد فيه روح الابوة، وإخلاص الصديق، وثالث صفاته المحببة إلى نفسه أنهما يتوافقان تماما حول مباديء ثورة ٢٥ يناير..

كان أكرم في عامه الخامس بطب جامعة قناة السويس عندما هبَّ الشباب بالثورة، شارك بتقديم الاسعافات الاولية والخدمات الطبية للمصابين في المستشفى الميداني بميدان الاربعين، يُرافقه كثيرون من زملائه بالكلية، كان أقربهم إلى نفسه حسين، يمنيّ الجنسية، التحق بالجامعة بمنحة بروتوكولية بين البلدين، لفت إليه الانظار بحماسه في تقديم الاسعافات وحمْل المُصابين. كان يشارك في الهتافات، ويأمل بانتقال شرارة الثورة إلى بلاده لتخليص شعبها المكلوم من نظامٍ طاغٍ مستبد.

أشعل أبناء السويس لهيب الغضب في نفوس المتظاهرين بتقديم أول شهيد في الثورة..

مازال اسم الشهيد الشاب محفورا في ذاكرة أكرم، وربما في ذاكرة أبناء السويس عموما.. مصطفى رجب محمود، أسّقطته رِصاصات غادرة في مساء أول أيام الثورة. كان في بداية عقده الثالث، والعائل الوحيد لوالدته وشقيقاته الاربع. في جنازته شدد الأمن من إجراءاته القمعية، إجراءات منعت آلاف المتظاهرين من المشاركة في تشييع جُثمان الشهيد لمأواه الأخير، واقتصرت على عدد محدودٍ جدًا يتقدمهم الشيخ حافظ سلامة الشهير بلقب قائد المقاومة الشعبية في السويس..

- ليه مبتنجحش أي ثورة شعبية في تحقيق أهدافها ؟

ردد أكرم سؤاله، وهو شارد الذهن، وكأنه لا ينتظر إجابة، لكنه عاد ليوضح سؤاله :

- طبعا قصدي كل الثورات.. تقريبًا فشلت.. وكانت مجرد ذكرى..

لم يُضف السؤال جديدا، لكنه أعاد جوَّ الجّدل والمناقشات بين الاصدقاء كعادتهم، ولم يكن ذلك إلا خلاف آراء بين من عاشوا التجربة، شاركوا في أحداثها سواء تأييدًا أو رفضًا، والمشاركة تبدأ من أضعف الإيمان، وتتسع إلى أقوى الافعال، لكن الانقسام، والانقسام الحاد هو سيد الموقف في الحالة وتوابعها، يتحول الاختلاف إلى خلاف فاجر، ثم خصام، ويُصبح ألد الخصام..

هذه الحالة موجودة، ومستمرة، بدأت مع الشرارة الأولى للثورة، واجهتها ثورة وصفوها بالمُضادة تمنع تحقيق الحلم، مُضادة لطموحات شعب يُعاني من الديكتاتورية، من الصوت الواحد، من الرأي الأوحد، من انهيار التعليم، من تدهور المنظومة الصحية، من التلوث، من تآكل البنية الاساسية، من اختلاط مُخلفات الصرف الصحي على مياه الشُرب، من البطالة التي أظلمت نور المستقبل في عيون الشباب، من الفساد الذي ينخر في مفاصل الدولة..

لم يهنأ الشباب بثورتهم أصبحوا ببراءة الأنفُس، وبتلقائية المشاعر وقودًا لثورة مُضادة، انقسموا وانقلبوا وشاركوا في القضاء على حلمهم الكبير، لكن بدون وعيّ وبحُسن نية، ولم يَنعَم الشعب بحرياته إلا لبضع أشهر، كانت كافية لتهيئة أجواء التصعيد، وكأنها كانت موقعة أُحُدْ جديدة، لم تكتمل بالنصر لأن الثوار والقوى السياسية هرولوا إلى الغنائم، وتقاتلوا على المكاسب والمناصب.

ومن هذه الثغرة تسلّلوا، انقضوا عليها، على حلم لم يكتمل بورديته، هم يُخططون ويُرتبون والآخرون ينصاعون وينجرفون وينقسمون، ينحصر العداء، ويتم تجهيز التهمة لكل من يعترض، لكل من يسبح ضد التيار..

هي عبارة ترددت في الأقاويل، واعتادتها التقارير حول هذه المنطقة من العالم، وتقول:

"اختفت الحقوق .. حقوق الانسان باتت هي الأخرى من الأحلام.."

واعتاد لُطفي بين الحين والآخر أن يتساءل:

وهل يُمكن لمن أهدر الحقوق أن يُقر بحقوق للإنسان؟!

وكالعادة..وجد السؤال رد فعل رمادي من خالد، وقبولًا من شريف..لكن التأييد بحماس شديد كان من الوجه الجديد في المجموعة، من أكرم، أصبحت كفة لطفي منذ ذلك اليوم هي الأرجح بالتوافق مع الطبيب الشاب..

*****

على أن التوافق بين لطفي وأكرم كان أسرع مما يتوقعه كلاهما، زادت معه دواعي الثقة، ثقةٌ لم تتأثر بالفوارق الطبيعية بينهما، وأهمها أن لطفي يكاد يعادل عمر أكرم مرتين في عدد السنين، لكن هذا الفارق اختفى بسرعة كبيرة كلما زاد تقاربهما في البوّحِ والفضفضة..

لم يُخفِ أكرم تعاطفه مع الشابة السورية زوجة مرَيضَه السبعيني، هي اسم على ما يُسمى، غيداءٌ في قوامها، في وجهها المُبتهج القانع بحالتها، وبما آل إليه مصيرُها، غيداءٌ في لمسة الجمال والارتياح التي ترسمها وتزرعها في أركان بيتها، وفي أريجه الذي يرتسم للوهلة الأولى في وجه زائرهما، ويترك أثرًا في نفسيته، شعر بهذا الارتياح منذ زيارته الأولى لهما، ولم يتغير هذا الاحساس في زياراته الأخرى، زيارات متقطعه كلما تلقى اتصالها بتدهور حالة زوجها، ثم عاهدهُما على الانتظام للمتابعة، ولإجراء القياسات الروتينية، في السكر وفي مستوى ضغط الدم، وعلى الرُغم من ذلك ألزم نفسه بعدم الحصول على مقابل مادي لزياراته..

تعانقت مشاعره مع احترامه وتقديره لسلوكها وأخلاقها، إذا اتصلت فهي لا تتجاوز ولا تُفْرِط في الحديث، لا تَخضَع أو توّحي بالقول، وعندما تستقبله في بيتها تكون حِشْمَة الملّبَس، مُتحجبةً بغطاءٍ عصريٍّ بسيط لا يكاد يستر جميع شعرها الذهبي، وتمتد عباءتها ذات الطراز والتطريز الدمشقي الشهير حتى كاحِلّي قدميها، ولا يظهر من جسدها الشاب العفي سوى كفّاها ووجها البضُّ الابيض الوردي، ولذلك لم يتَعجْب من تلك الثقة التي أولاها لها زوجها، واستشعرها أيضًا تجاه أكرم..

كان أكرم فارع القوام بالقياس إلى أصدقائه وأقرانه، يحتاج لأقل من عشرة سنتيمترات لكي يُكمل المترين طولًا، يحظى بوجه مصري خالص، هو أقرب إلى سُمرة قاع النيل منه إلى اللون الأبيض، ذلك اللون الرمادي الذي يلمع بأشعة الشمس في قاع النهر أمام العيون من فوق كوبري ٦ أكتوبر، واعتاد المارون والمحبون رؤية ملامحه من فوق الكوبري، وفي مواضع عديدة منذ أن بدأت أثيوبيا في بناء سد النهضة وتخزين المياه في بُحيرته، وضربت بعرض الحائط كل المُناشدات والمفاوضات المصرية والسودانية.

ولأكرم جسم رياضي متناسق، اكتسبه من اعتياده الدائم للذهاب إلى مشاويره وارتباطاته مشيا على الاقدام، لا يركب المواصلات العامة إلا في حالة السفر خارج الجيزة أو الانتقال بعيدًا عن شارعي الأهرام والملك فيصل، ويختلف عن بقية زُملائه الاطباء بعدم ارتداء نظارة طبية وبعدم الحاجة إليها، يحظى بقدر من الهيبة والهدوء في تعاملاته مع الآخرين، ولديه شخصية آثرة آثرت غيداء على الرُغم من أنه يصغرها بعامين..

ولم يكن أمام غيداء إلا مقاومة احتياجاتها العاطفية، وتصبر على نصيبها الذي ارتضته، وكان عليها أن تكبح جماح نفسها وما تشتهيه أنوثتها الطاغية المتفجرة، تيقنت واستوعبت في قرارة نفسها أنه ليس لها خيارٌ آخر لكي تُحافظ على مأواها، ولكي تحتفظ بملازها الذي تستند إليه حتى لو كان واهنَ العظم وناقص الفحولة..

لم تتمرد بشهواتها على النصيب الذي آلت إليه، كان ينمو في داخلها اعتقاد بأنه مؤقت، ولذلك أقنعت نفسها بالمثل الشعبي " ضُل راجل ولا ضُل حيّط "، مازال لديها ذلك الأمل بنجاح الثورة في الشام، ويُراودها ذلك الامل بالعودة إلى سوريا، إلى لمّ شمل ما تبقى من عائلتها وممتلكاتهم في حلب.

صحيح بمرور الشهور والسنون، كانت الاحداث تتصاعد في أزمات سوريا وكل بلدان العرب، ومعها يتضاءل ويتراجع الأمل، لكنه أمل لا يموت، ويظل باقيًا في وجدان كل مُهاجر، وعليه كانت تحيا به غيداء، وتتمناه في وحدتها قريبًا، فكانت تُشاغل نفسها بكل مهام وأعمال البيت، وتتولى شراء كافة احتياجاته، وتتصدى لمشاكل وخلافات اتحاد مُلاك العمارة مع المياه والكهرباء والصرف الصحي وفي كثرة أعطال الاسانسير، وتقف في طوابير المعاشات لصرف المعاش الشهري نيابة عن زوجها.

- بقولك إيه، أنا مش هانزل أتمشى في الشارع تاني، كل مرة آلاقي الاسانسير عطلان وتطّلع روحي في طلوّع السلالم للدور العاشر، أمال إيه فايدة الانسولين.

هكذا ، كان زوجها يواجه محاولاتها وتوسلاتها اليومية لكي ينزل معها للتمشية لبعض الوقت، وتُعيد تذكيره بنصيحة الطبيب كجزء من علاج السكري، على أن غيداء كانت تُشفق عليه كثيرًا في هذه الناحية، فهي أحيانًا ما تواجه مُعاناة الصعود للدور العاشر بسبب كثرة أعطال الاسانسير، وكانت تجد في مواجهة وتحمُل كافة الأعباء مخرّجًا للخروج من حالة الملل والكآبة اللذين كانا يُسيطران على الأجواء، وإذا فرغت من كل ذلك فهي تذهب إلى القراءة أو إلى مُلاعبة قِطتها **"حسناء"**.

وكان لابد أن يَنبُت في داخله ذلك الإعجاب، إعجاب لا يعرف كينونته، هل هو في عِفْتها واحترامها ووقارها اللافت في حديثها، أو في شخصيتها الآثرة، أو في جاذبيتها، أم هو بإنوثتها الطاغية وبجمالها الذي يبدو واضحاً للعين في وهلَتَها الاولى، واضحا في قوامها وبشرتها الصافية، في عينيها العسليتين الناضرتين، في أنف حلبية وشفتين ورديتين، في نهدين عفيين نافرين..

لم يقوّ على البوّح لها بما يستشعره، وبما يُعانيه، ولا يَدّرِ ماذا يمنعه، هل هو الاحترام لوضعها ولظروفها، أم هو الاعتبار لثقة المريض الطاعن، أو ربما لحُرمة البيت الذي يدخله بلا استئذان، لكن لم يستطع كتمانه على لطفي لأكثر من ثلاثة أشهر، وجد الفرصة في انفرادهما معًا بعد مغادرة شريف وخالد، وألقى بما يجيش به صدره، وكأنه يسحب آلامه، ومشاعره الجميلة خارج زنزانة نفسه، **وتساءل**:

- تفتكر اللي أنا فيه حُب ولا مجرد إعجاب؟! يا أستاذي؟

ابتسم لطفي، ولم يُجب لهفة صديقه الشاب من فوره، لكن سرَح قليلًا، وتذكر مع ابتسامته حُبَه السابق، حُبَه الذي لم يكتمل وذهب كلٍ منهما إلى طريق يخالف الآخر، افترقا في بدايات الربيع العربي، كانت هناء تصغره بخمسة عشر عامًا، لم يكن لهذا الفارق وجود أو تأثير في علاقتهما التي بدأت مُلتهبة، دخلت حياته واستحوذت على مشاعره بعد مرور أكثر من عشر سنوات على وفاة زوجته الأولى، لم يدُم زواجهما لأكثر من عام وبضع أسابيع، وكانت ابنته روزان ثَمَرَته الوحيدة.

تعرف على هناء في إحدى المناسبات الاعلامية، كانت هى إحدى ضيوفها وتعمل في شركة أخرى التحقت فيها لتوها، وكأن القدر قد ساق كل منهما إلى الآخر، هو لم يعثر على الحُب الحقيقي الذي يكتمل بالمودة والرحمة مع نصفه الآخر، وهي كانت خارجة لتوها من تجربة فاشلة لخِطبتها الثالثة، وعلى مدار ثلاثة أعوام عاشا أجمل المشاعر وأحلى قصة حالمة، لكن العلاقة لم تصل إلى نهايتها التقليدية التي كانا يحلمان بها.

تأثرت علاقتهما بعدم توافقهما سياسيًا وأيديولوجيًا، وتعثرت لبُطئِه وبإندفاعها نحو إتمام الزواج، وانتهت برفض ابنته لها ولرفض أمها له، وعلى الرُغم من مرور ثماني سنوات على انتهاء علاقتهما وارتباطها بآخر، إلا أنها لم تقطع خيوط الود والتواصل معه، ولم يستطع أن يتخلص من وجودها في مشاعره، وفي خياله ووجدانه، وكأنه طيف آخر يعود إليه من الذكريات، تُراوده من حين لآخر كلما باح له شريف بكل جديد في علاقة حُبه الوحيد مع سكرتيرته، لكن خالد كان الأوفر حظًا منهما في علاقته التي اكتملت بزواجه الثاني..

وعلى الرُغم من أن كل منهم سبق له الزواج، وربما تكون له بعض التجارب العابرة، إلا أن القلب لا يفتح أبوابه إلا لتجربة حُب واحدة، واحدة فقط تستحوذ على مشاعره، وتبقى في الذاكرة إلى الأبد، تعيش في زاوية بعيدة من الوجدان، تبقى نائمة لكن لا تموت أبدًا، تستيقظ من حين إلى آخر كلما لاحت أسبابه، أو كلما طاف طائف بالخيال أو أيقظ الذكريات..

- أستاذي..سرحت في إيه ؟

استعاد لطفي نفسه، وتنبه لسؤال أكرم، صوّب إليه عينيه، وبثقة وجدِّية أجابه:

- اللي جواك ناحيتها نبتة حُب صادق يا صاحبي..

وكأن الاجابة أيقظته من حلمٍ جميلٍ، وروت إحساسه باطمئنان شجعه على تجاوز خجل البدايات بعد كشف أسراره، لمعت عيناه ببريق أمل جديد عليه، وعليه جاء الدور على السؤال التقليدي:

- وتنصحني بإيه يا أستاذي..
- حافظ على الأمانة، ومتتخلاش عنها..

# الجزء الثاني

# مَقهىّ المريوطية

# ٥

تجاربه، ذكرياته العاطفية، كانت أشد عُنفا وأكثر قسوة، احتفظ بهم في صندوق أسراره، وأخفاه بعيدا عنهم، وعن كل المقربين إليه.

وكأنه كالبحر، يَبُثُّه كل ضائق همومه، وكل عاشق أسراره.

وكأنه صدر أُمٍ حنون، تفتح قلبها لمشاعر وآلام أبنائها.

وكأنه حائط مَبْكىً.. اخترعه اليهود لبُكائهم وأنينهم وندمهم.

*****

فوجئ لطفي برسالة على تليفونه المحمول، لم يتوقع مثل صراحتها من شريف، أكدت كلماتها أنه لم يعُد يحتمل كتمانها في صدره، وكأنه أراد أن يُخرِجها من داخله، ويُطلِق لها العنان، حرر مشاعره بصعوبة من داخل شخصيته المتحفظة، شخصية وعت على قيود تُحيط به من كل جانب، لم يستطع التمرد عليها منذ طفولته، وحتى زواجه كان بنفس الصورة التقليدية لكي يتزوج من انتصار، تنتمي انتصار أيضا إلى أسُرة قضائية، وتعمل مثله وكيل نيابة في نفس الهيئة القضائية ..

اجتمع شريف وانتصار على قوالب مشتركة في العمل، وبين الأُسرتين وفي ابنهما وائل الذي بلغ خَمْس سنوات في نفس الشهر الذي أصدرت فيه المحكمة الدستورية حكمها ببطلان مجلس الشعب، كانت أغلبيته في يد الأحزاب الإسلامية .. وكان المبرر هو دخول الأحزاب بالتنافس على المقاعد الفردية للمستقلين ..

اختلف شريف وانتصار في العديد من الفوارق الشخصية والاهتمامات، تحولت حياته معها إلى موظف في عش الزوجية، فاتسعت الفجوة بينهما وزاد ارتباطه نفسيا بابنه، وكان يُرحب دائما بترشيحه لكي يكون رئيساً لإحدى الدوائر النيابية خارج القاهرة الكُبرى، أكثرها كانت في ملوى جنوب المنيا، ولم يبذل أى مساعي للانتقال إلى إحدى الدوائر القريبة، مثلما يفعل الآخرون الذين لا يصمدون أكثر من عامين بعيدًا عن العاصمة ..

يجد راحته ويشعر بالأُلفة في الأيام التي يقضيها في ملوى من كل أسبوع، لا يدفعه للعودة إلى منزله في حدائق الأهرام إلا شوقه وحنينه لابنه، وتزامن انتقاله إلى القاهرة مع ترتيبات الإعداد لانتخابات مجلس الشعب، ويداعبه لطفي دائمًا:

- برلمان الثورة .. هو اللي جابك للعاصمة ..

لم تكن لشريف أى تجربة عاطفية مع أى فتاة أو سيدة، عاش طفولة مُتزمْتة تحت سيطرة الأب، يغلُب عليها المحاذير والتعليمات، ووضعت له خطوطًا حمراء تُحذره من الاختلاط أكثر من المسموح به مع الجنس الآخر أو أصدقاء السوء، وهكذا يُمعن الأب أو أي أب من هذا النوع في التوجيه والتحذير، وربما ترهيب الأبناء..

انصَاعَ الابن لسطوة والده صاحب الخلفية العسكرية، تقاعد الوالد بعد أن تعانق على كتفيه السيفان وبجوارهما شِعار النسر .. وهكذا تبدو رُتبته العسكرية ظاهرة في صورة له بالحجم الكبير داخل برواز يتصدر بهو الفيلا وقاعة استقبال الضيوف الكائنة بمحرم بك الإسكندرية ..

انتقلت هذه الأجواء مع شريف في بقية مراحل التعليم حتى نال ليسانس الحقوق، وقادته ترتيبات الأب إلى العمل في سلك القضاء، ودفعته هذه الأجواء إلى الاطلاع الديني، وجد في نفسه ميولاً وهوىً يسحبه إلى التيار السلفي، وكان يستثمر جزءًا آخر من وقته في تدريبات رياضية، وبها دخل في بطولات محلية ودولية لرفع الاثقال، نال العديد من الألقاب والميداليات، ومع ذلك لم يجرؤ على إطلاق لحيته لخشيته من غضب وعقاب الأب، فأخفى ميوله للتيار السلفي، وأعلن هوايته الرياضية منذ بدايتها فرحب بها الأب ..

لكن شقيقه عادل الذي يصغره بعامين تمرد على جبروت الأب، وتعاطف بميوله إلى جماعة الإخوان المسلمين، ولم يتردد في الانضمام إلى مظاهراتهم خلال ثورة ٢٥ يناير .. وشارك اعتصامات الثوار أمام مسجد القائد إبراهيم ..

لم يتغير حال شريف بانتقال مهام عمله إلى قطاع التربية والتعليم، يذهب مُبكِرًا إلى مقر وحدة النيابة في الدور العاشر بمجمع التحرير، يسبق كل زملاءه وحتى الموظفين، اعتاد أن يصطحب معه بعض المأكولات الخفيفة والمقرمشات وقراطيس اللب والفول السوداني، ويحلّوا له أن يفتح شباك المكتب الذي يشاركه فيه زميلان آخران، ويطل من خلاله على ميدان التحرير وقد امتد على مرمى بصره إلى ميدان عبد المنعم رياض ونزلة كوبري ٦ أكتوبر، يُراقب الأحداث والفعاليات المتواصلة في الميدان، يشّهد يومياتها وهى تتصاعد بمضارب الخيام والاعتصامات قبل تفاقم الأحداث الدامية في شارع محمد محمود ووزارة الداخلية ..

خلال تلك الأحداث لفت نظره وترامت إلى مسامعه جَلَبَة غير مُعتادة، همهمات وخطوات مُتسارعة لموظفي الإدارة والإدارات المجاورة، تجمعوا حول عدد من زملائهم في طُرقات الدور العاشر، يحاولون تقديم الإسعافات الأولية للذين أصابتهم اختناقات قنابل الدخان وبعض الكدمات والسجحات:

- الحمد لله، أنا بقيت كويسة، ما تقلقوش عليّ، محصلش حاجة..

هكذا طمّأنت عزة صديقتها سعاد وزملاءها خلال دخولها الإدارة، كانت تنزل إلى الميدان خلال الفعاليات، وتستجيب لدعوات عدد من شباب العاملين والموظفين في المُجمع للمشاركة ومساندة الثوار، كان يتردد اسمُها وأسماؤهم في الادارة والمُجمع، ويومًا بعد يومٍ تزداد عليها وعليهم مساحة المشاعر، ما بين الإعجاب والتأييد والرفض الحذر.

وكان شريف قد اتخذ موقفًا رافضًا لإندلاع الثورة في البداية، توافق في ذلك مع موقف التيار السلفي، يُنكر الخروج على الحاكم، ويتوافق مع مبررات أنصار النظام بأن يكون التغيير من خلال صندوق الانتخابات، لكن في نفس الوقت لا يُنكر على الشباب والشعب حقهم في التعبير عن الرأي، كان هذا الموقف رماديًا خالصًا، يوافق على شيء ولا يعترض على الآخر، ليس له لون سياسيٌ واضح، يدخل الأنفاق المُظلمة عندما تغلُظ عصا السلطة في يد حاكم مُتسلط، ويقبع تحت الارض بتغول الديكتاتور في الانتقام وسفك الدماء، وعليه بدت الانتهازية السياسية، هي الصورة الغالبة للتيار السلفي في عيون الذين شاركوا في الثورة..

اعتاد شريف على رحلته الصباحية من شباك غُرفة المكتب، يأنس لتبكيره إلى عمله قبل الجميع، وكان ذلك يُتيح له فُسّحة من الوقت للحديث مع عم جعفر أقدم السُعاة، وأكثرهم معرفة بالعديد من الخبايا والأسرار التى عاشها داخل الوحدة، وفي العديد من الادارات الحكومية الاخرى بالمجمع، وكان هو الآخر يضطر إلى التبكير على غير عادته السابقة قادماً من حلوان، لكي يتواجد في الوحدة قبل شريف ويكون في استقباله، وبمرور الأيام زادت الأُلفة بينهما، واتسعت مساحة الود، وازداد شريف في بساطته مع كبير الْسُعاة الذي لم يبخل عليه بالحكايات والأسرار ..

على أن عم جعفر لم يكن الوحيد الذي يذهب مُبكرًا إلى الوحدة، كانت تحرص على ذلك عزة، التحقت بالوحدة من خلال الخدمة العامة للتدريب في مُسمى سكرتيرة نيابة، لم تندمج إلا مع زميلتها سعاد التى تكبرها بعامين، لكن كلتيهما حاصلة على ليسانس الحقوق، ويعملان مثل مئات الآلاف من شباب الخريجين بما يسمى المكافأة الشهرية بمبلغ مائة وثمانين جنيهاً وارتفعت بعد الثورة بزيادة قدرها خمسة وتسعون جنيهاً، واضطرت حكومة الانقاذ التى عينها المجلس العسكري إلى التعهد بتثبيت مئات الآلاف من طابور أصحاب المكافآت الشاملة، كان قد سبق لهم الالتحاق في الوزارات والمؤسسات الحكومية منذ ثلاث سنوات وأكثر. لم تكن عزة من بين هذه المجموعة الأولية، عليها أن تنتظر عامًا آخر لكي يتم تثبيتها في موقعها ..

كانت عزة عامر تقترب من عامها الثامن والعشرين، تحمل لقب مطلقة، لديها طفل أنجبته من طليقها حسام قبل أربع سنوات، لم تكن ذات جمال يلفت الانظار للوهلة الأولى، لكن يُميزها عن غيرها تلك الجاذبية البادية في عينيها ونهديها النافرين فوق صدرها.

ومنذ قدومها إلى وحدة النيابة بالمجمع، لم تسمح بمحاولات استدراجها إلى أي علاقة عاطفية، ولم تنجرف وراء إغراءات أحد الوكلاء، وكذلك أحد الموظفين إلى صداقة كانت تتشكك في صدق نواياها، كلاهما كان شابًا لم يسبق له الزواج، ويري فيها صيدًا سهلاً لكونها صاحبة تجربة سابقة وضعتها في خانة المطلقات، لكن خبرتها كانت تفضح نظرات عيونهما الجائعة إلى نهديها وإلى جسدها، ولا تتردد في صدهما بكلمات حاسمة تقول:

- أنا مش من النوع اللى بتفكر فيه، روح دورلك على واحدة غيري ..

كانت ماتزال تعاني آلام الانفصال عن زوجها، فقد سبق لها تأجيل أداء الخدمة العامة المفروضة على الفتيات بعد التخرُج، وبعد طلاقها سعت بإرادتها للإنشغال بالخدمة العامة، وتقوم برحلتها اليومية في الذهاب والعودة لمُجمع التحرير بقطار المترو، ولأنه تصادف أن تكون من سكان حلوان، فقد نشَأت بينها وبين عم جعفر تقارُب بروح ودية، وهذا ما جعلها تبوح له بما تواجهه من مضايقات وملاحقات البعض داخل وخارج الوحدة..

عرف شريف الكثير من الأحوال والحكايات، ولم يبخل عليه عم جعفر بشيء، كانت وسيلة التسلية بينهما في الوقت الذي يسبق قدوم الزملاء.. لكنه كان يولي اهتمامًا أكبر بما يسمعه عن عزة، ولما يتردد من شائعات حول علاقة صديقتها سعاد بزميل آخر من الوكلاء، المستشار عطا الله كان متزوجًا ولديه ثلاثة أولاد، ويكبرها بعشر سنوات بينما كانت هي مطلقة ولديها أيضًا طفل لم يكمل عامه الخامس ..

مثل هذه الاجواء لا تُخطىء هدفها، أخذ هو يتعاطف مع عزة، ومع حالتها وظروفها التى تتوالى على مسامعه بحكايات جعفر، وبما ترويه هي عن نفسها، لم تكتف بما أفسحه لها من وقت ومهام في العمل معه، فقد استعان بها دونًا عن غيرها من الموظفين، لكي تقوم بأعمال السكرتارية لتسجيل ونسخ التحقيقات في الدعاوي والشكاوي التي يقوم بها.. وانضمت إليهما، أى شريف وعم جعفر، في الذهاب إلى الوحدة قبل الجميع بأكثر من الساعة ..

ومن وقتها انتهى دور الراوي الذي كان يقوم به عم جعفر، واكتفى بتلبية طلباتهما من مشروبات ومأكولات خفيفة غالباً ما تكون سندوتشات الفول والطعمية ومقبلات أُخرى، وكثيراً ما كانت عزة وعم جعفر يلتقيان في رحلة المترو كل صباح من حلوان إلى محطة السادات أسفل ميدان التحرير، حرصت على تنمية تقارُبها إليه بروح الابنة، أعتقدت أن لهذا التقارب دور يمكن أن تستفيد به، ليس في نصائحه وتوصياته، لكن في تحقيق ما يُراود خيالها منذ اقترابها من شريف، ارتاحت له ولمداعباته، فاجأها ذات صباح عندما وجدها قد سبقته في انتظار أول رحلة للمترو في محطة حلوان، وبإبتسامة كبيرة قال لها:

- الحُب كده .. وصال .. وخصام

ابتسمت عزة، وحاولت السيطرة على بوادر الخجل التي ظهرت على وجهها من وقع كلامه، وازدردت ريقها، صمتت لثوان معدودة،

أتاحت لها مهلة التفكير السريع وهي تنظر إلى القضبان، شعرت بانقباض خفيف في نظرتها إلى القضبان، ثم رفعت إليه عيناها، وردت عليه بابتسامة أخرى :

- بس بلاش تقُّول بالخصام يا عم جعفر ..

وعليه رسمت في خيالها أحلامًا وردية، وبدأت ترسم مع هذه الأحلام خطة الاستيلاء على قلب شريف، وأيقنت بخبرتها أنها أمام صيد سهل، لن يستطيع المقاومة كثيرًا، ولن يفلت من شباكها التي أحاطت به من كل جانب، باحت بما يجيش في صدرها وخيالها إلى سعاد، فشجعتها ودفعتها لكي تسير في نفس الطريق الذي اختارته هي مع عطا الله..

اختارت عزة لغة السذاجة على تعبيراتها وفي عباراتها معه، وخلطتها بأسلوب البراءة والعفوية في تصرفاتها وردود أفعالها، فكاد أن ينسى أنها صاحبة تجربة سابقة، تعاطف معها وأشفق عليها لما عانته ولاقته من طليقها، وحرصت على تفريغ نفسها له، احتوته باهتماماتها ومُلاحقات عيونها، لم تترك شيئًا يجذبه إليها أكثر إلا وفعلته، حتى أنها أبدت من الصبر والإصرار ما أثار دهشته فى إعادة ترميم وإصلاح لوحة مكتبه التي تحمل اسمه، كانت قد هُشِمّت بوقوعها على الأرض ..

لم يقوّ شريف على مقاومة هذا الإنجذاب، ولم يستطع أن يمنع إقباله عليها، ودخل في دوَّامة تفكير فيها طوال ثلاثة أشهر، ماذا يفعل في هذا الشيء الجديد الذي دخل حياته؟ كيف يتصرف في تجربة عاطفية لم يُعايشها في سنوات مراهقته؟ هل هذا يليق به في هيئة قضائية لها مكانتها ووقارها؟ إلى من يلجأ لكي يزيح عن صدره ما يشغل تفكيره ويستحوذ على اختياراته؟

لقد ضاق به المكان على رحابته في حديقة النادي الأهلي المواجهة للمبنى الاجتماعي، أعياه التفكير فيمن يتوجه إليه بشكوى حالته .. كان لطفي يبُوح له ببعض ذكرياته عن تجربة مماثلة .. سبق أن دخل في علاقات وتجارب .. لم يجد أحدًا غيره لكي يثق فيه .. ويفضفض إليه، وبادر بكتابة الرسالة التالية عبر تليفونه المحمول :

- أنا في أشد الحاجة إليك .. أعمل إيه يا صاحبي؟

وقعت في المحظور .. وقعت في الحب.

# ٦

إنه الهوى.

إنه الوله.

إنه الحُب.

نعم هو الحُب، هو المُخدر اللذيذ، المُخدر الذي يجعلك تنسى، تنسى أي شيء إلا الحبيب.

لا مُستحيل مع الحُب، ولا كبير على الحُب.

المرأة هي أجمل وأحلى من الجنّة.

لا جنّة بدون حواء.

عندما خلق الله آدم أبو البشر، أوجده في الجنّة، والجنّة فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومع ذلك بعد فترة لا يُعرف كم هي تحديدًا. شعر آدم بالضيق، وأحس بالكآبة، وعانى من الوحدة..

فماذا فعل الله له، وهو أعلم به وبحاله، هل ضَاعف من حلاوة الجنّة، وهل زادها جمالا في نفسه وفي عينيه؟

لقد خلق له الأجمل والأحلى والأروع.

لقد خلق الله له حواء، فسكنت نفسه وسكن إليها، وهدأت روحه واهتدى بها، ومعها أنجبا البشرية كلها.

فهل كانت حواء عند آدم أجمل وأحلى من الجنة ؟!

وهذه هي المرأة، أجمل وأحلى هدية للرجُل..

*****

لم ينتظم شريف في لقاءات مقهى المريوطية، أصبح يغيب عما اعتاد عليه، وعلى الرُغم من حاجته إلى الكلام، إلى الفضفضة، وإلى المزيد من نصائح وخبرة صديقه لطفي، إلا أنه لم يجد الحماس لذلك، وانجرف إلى عالم عزة بكل وجدانه وتفكيره، وجد نفسه ينجذب إليها أكثر فأكثر، وتسللت هي إليه شيئًا فشيئًا..

وقع فيها، وقع بقلبه وعقله معًا، وقع بكامل إرادته، وقع وكأنه ألقى بنفسه في مياه دافئة، يسبح ويلهو ويغوص في دفء مشاعرها وأحضانها، لم ينعم بمثل هذا المشاعر في شبابه الأول، ولم يَعش حلاوتها داخل جُدران الزوجية، ألغت تفكيره، واستحوذت على مشاعره، يحلم بها، ويستيقظ على رنات تليفونها، يراها في خياله قبل أن يلتقي بها، طلب أن يراها أكثر وأكثر خارج العمل، قال لها، وبصوت كله رجاء وحنية:

- عايز أشوفك دايمًا .. عايز اتكلم معاكي على طول.

شعرت بشيء من السعادة .. ابتسمت بزهو المُنتصر .. لقد نالت منه وطرحته لمس أكتاف " بلغة رياضة المصارعة "، ردت بكلمات جعلت نبراتها يغلُفها شيء من الدهشة :

- ما حنا بنشوف بعض كل يوم، وبنتكلم في كل حاجة ..
- عايز اشوفك لوحدنا .. بعيد عن عيون الناس، وخارج المكاتب.

ابتسمت بأرّيحيّة أكثر .. وفضّلت ألا تُسعف لهفته .. وقالت:

- أنا ماعنديش مانع، ونفسي اشوفك لوحدنا..بس الأول لازم آخد الإذن من ماما.

ابتهج لردها، ردٌ أثلج صدره، وألهب مشاعره، لكنها عادت لتقول له :

- ماما مش موافقة..وبتقول ماينفعش تخرجوا مع بعض، الناس هتقول إيه، وبأى صفة هتخرجوا مع بعض، مش عايزين مشاكل "ثم بميوعة ودلال" بلاش أحسن يا شريف.

لم يذهب شريف في هذا اليوم إلى الشغل، التاعت نفسه، اشتعل في صدره لهيب الانجذاب إليها، لم يستطع أن يُبعدها عن تفكيره، يراها في كثير من الوجوه، في الشارع، في التليفزيون بمقارناته مع أُخريات يظهرن على الشاشة .. لم يستقر على شيء .. يتجول داخل الشقة، تلاحقه عيون زوجته انتصار بدهشة واستياء واستنكار، لا يُعيرها اهتمامًا، لم يهدأ على حال .. غادر الشقة، اتخذ قراره بالنزول إلى الشارع، كانت ظهيرة هادئة لأحد أيام شهر أغسطس، وقف أمام البيت الذي يسكنه في حدائق الاهرام، مُترددًا ينظر إلى تليفونه .. ثم تشجع ليتصل بها:

- مش قادر أقاوم مشاعري يا عزة، مش قادر أمنع نفسي عنك، لما بنام بحلم بيكي، ولما بسرح بفكر فيكي، أنا بحبك يا عزة، بحبك ومش بإيدي رغم الموانع اللى عندك وعندي.
- وانا كمان يا شريف بحبك، ومش قادرة اعمل حاجة تاني غير إني أحبك .. وعايزة اشوفك دايمًا ..
- طب ليه مش عايزة نتقابل لوحدنا.
- نتقابل يا حبيبي، وفي الوقت اللى إنت عايزه.

ابتسم، وانفرجت أساريره، تنفس بعمق وأغمض عينيه رافعا وجهه بامتنان إلى السماء، سكن التوتر وهدأت روحه، وعادت معنوياته تُحلِّق في عِليين، أمْسَكَ بالفرصة، **وسارع يقول :**

- نتقابل بعد ساعتين في حديقة الفردوس اللي جنب كوبري قصر النيل.
- ماشي يا حبيبي.

كاد أن يطير من الفرح، رفع يديه وعينيه إلى السماء وكأنه يشكر الله..

وهو على هذه الحالة، لمح زوجته ترقُبه من الشُرفة، أُسقط في يده، وحاول أن يعود إلى هيئته ووقاره، عاد إلى البيت لكي يستبدل ملابسه لأول لقاء مع محبوبته.. رد على استفسارات زوجته بأنه كان يُهاتف صديقًا له " ثم للتأكيد: شوقي اللي بيشاركني في البطولات" .. لكن إحساس الأُنثى لم يُقنعها بحكاية شوقي هذا .. وأبدت امتعاضًا وشكوكًا ..

منعها كِبرياؤها أن تقول له ما تشعر به في صدرها .. تجاهلت خروجه من البيت، وكأنه يهرول إلى موعد قطاره إلى مدينة ملوي كما اعتاد من قبل ..

اختار أن يلتقي لأول مرة بمحبوبته في ذات الحديقة بجوار كوبري قصر النيل .. حديقة لقاءات لطفي وهناء .. كانت أول ما طرأ إلى تفكيره عندما وافقت عزة على لقاءه، سارع بترديد هذا المكان عليها .. كان حاضرًا في ذهنه لكثرة ما سمعه يتردد على لسان صديقه، وأيضًا لأنه قريب من مجمع التحرير، لكن بعيدًا عن عيون المعارف والزملاء والاصدقاء ..

جلسا على واحدة من المصاطب الأسمنتية في الحديقة .. اقتربت منه، ثم التحمت بجواره أكثر .. ينظران إلى ماء النيل الرقراق، بدأ ذلك الإحساس الجميل ينبعث في مشاعره، تتعالى معنوياته وكأنه يتفتح من جديد إلى الحياة مثل الأوراق والزهور، وفي بقايا النباتات والزروع التى أفلتت من الايدي العابثة، ومن عُنف الأطفال اللاهية..

وبلغة العيون، صوَّبت عزة سهامها إلى قلبه، وبكلمات رومانسية دافئة، أطربته برقتها، يسمعها شريف لأول مرة، تسللت إلى مفاتيح مشاعره، سرت في ينابيع وخلجان أحاسيسه، استدرجته إلى الاعتراف الكامل ..

وكأن جسده انهار في أنهار من المشاعر العاطفية، بأيدٍ مرتعشة أمسك بيديها، وبصوت يقاوم آخر ما تبقى لديه من موانع، ألقى ما بداخله إليها:

- أنا بحبك حُب ماكنتش فاكر إنه هاييجي اليوم وأقع فيه لشوشتي، "ثم ازدرد ريقه وأكمل "، حاولت امنع حبي ليكي لكن معرفتش، وحاولت اصدك عني، واتعمدت أعنِّفك بالتوبيخ تارة، والشخط مرات عشان تكرهيني وتبعدي عني وتتجنبيني لكن ماقدرتش ..

وبلذة المُنتصر، بدت تستمتع بكلامه، وفتحت له الباب لكي يقول المزيد، واستخدمت خبراتها وغريزتها في ذلك باللمسات، والإيحاءات، والغمّزات، قالت:

- أيوة فاكرة، لكن أنا برضه ماكنش بإيدي لأنى حبيتك، لكن كنت بحاول امنع نفسي لأنى ماكنتش مصدقة إنك تحبني، وكنت بسأل نفسي معقولة شريف بيه يتنازل ويحبني، ويكون عايزني!

وبدون تردد ،وبدون تفكير قال :

- أنا فعلا مش قادر غير إنى أحبك، ومش عايز حد غيرك.

وكأنها تُحكم الحصار عليه، قالت:

- بس اللي مخوفني إنى مش عارفة حبنا هيودينا على فين، ومش عايزة اكون بخرب عليك، وعلى بيتك ..
- اكيد هايودينا على الأفضل كل ما يكبر فينا، لأني كنت قبلك واحد موظف بوظيفة زوج في بيت الزوجية، وبعد ما حبيتك أصبحت الوظيفة عبارة عن قيد بيخنُقني.

استوطن شريف في عالم عزة، وتمكن حبه لها من كل جوارحه، كان يَحِس بشُحناته تزداد في قلبه، في ارتياح عينيه كلما رآها، وكلما التقى بها .. تماما مثلما يتغير احساس الذي يعاني من لهيب الشمس الحارقة بنسمة هواء نديّ على شواطئ البحر المتوسط .. تيارات الهواء تعانق الوجوه والابدان بلفحات طَرِيّة نَديّة، تبعث بالرضا والارتياح .. الحب مثل الهواء، يأتي وتشعر به الاطراف وألاعماق دون أن نراه، يتسلل إلى الجوارح والأحاسيس، لا نرفضه ولا تكون لدينا القدرة على منع هذا الضيف اللذيذ..

الحب مخلوق من جنود الله يُسلطها إلى من يشاء، وكيفما يشاء، وللحب تموجات في المشاعر والوجدان مثل تموجات الهواء التي تبدو في فَوَران وهَيّاج البحار والمحيطات، وتبدو واضحة في حركة الأمواج وتتابعها حتى تصل إلى الشاطئ ..

أصبح يهوى الجلوس بالقرب من الماء، وبات يُكثر من رحلاته النيلية مع عزة، الآن عرف وأيقن لماذا كانت تبدو الحسرة في مناقشاته مع صديقية عندما يتطرق الحديث إلى الماء والانهار والبحار والشواطيء.

لقد أنعم الله على مصر بشواطئ عديدة، ومنحها مساحات شاسعة على بحرين عظيمين، أحدهما أبيض يمتد من رفح مع حدود غزة الفلسطينية إلى ما بعد السلوم مع حدود ليبيا، والآخر أحمر يبدأ من بورسعيد وعلى جانبي قناة السويس ثم ينطلق في سواحل جنوب سيناء وحتى طابا مع حدود الدولة العِبْرّية، ومن خليج السويس تمتد أجمل شواطئ البحر الاحمر إلى حلايب وشلاتين مع حدود السودان ..

- الغريب ان البحر الاحمر موجود في أحضان العرب ومتحوط بهم، لكن مبيحملش اسمهم، حتى أن الخليج العربي معروف بالاسم ده عند العرب فقط، وفي كل العالم، في الوثائق والخرائط الدولية معروف بالخليج الفارسي.

تدخل خالد بهذا الكلام ردًا على كلام لطفي الذي كان يتحسْر على امكانيات مصر في سياحة الشواطئ .. ولم تستثمرها الحكومات كما يجب ..

- المشكلة مش في الأسماء والأوصاف، لكن المشكلة الأكبر في اقتصادنا السيئ والمنهار .. والمُضحك أن بلدًا يُعتبر دولة المصب لنهر النيل والتقارير بتقول انها اكبر مستورد للقمح في العالم.

رد لطفي بشيء من الاصرار الذي يحمل تلك النبرة، نبرة توبيخ تتردد في الاحاديث الجانبية بين الناس، فتدخل شريف باندهاش يحمل نفس النبرة، **وقال:**

- دي تبقى كارثة كبيرة يا أستاذ.
- الكارثة الأكبر أننا بنستورد القمح أسبوعيًا تقريبًا..

وسارع خالد برد يحمل صفة اتهام، وقال:

- أهى دي مجايب الثورة يا حبيبي، ما كُنا مستريحين أيام اللي خلعتوه، وكُنا بناكل ونشرب، ومبنشتكيش من حاجة**!!**

# ٧

وجد لطفي نفسه محصورًا بين علاقتين لصديقيه، استأثراه بأسرارهما الخاصة، كل منهما لا يعلم شيئًا عن العلاقة العاطفية للآخر، وعندما يلتقي الثلاثة، يجمعهم الحديث في الأحوال السياسية المتلاحقة، والتي تستحوذ على اهتمامات الرأي العام عمومًا، يتبادلون الأراء في الشأن العام، ولا يتحول هذا الروتين إلى العلاقات والأسرار الخاصة، إلا عندما ينفرد كل منهما بلطفي في لقاءات أخرى يحرصان عليها ولا يُمانع هو فيها ..

يتعاطف لطفي أكثر مع علاقة شريف بعزة، يؤمن بأن حالة الحب التي يعيشها شريف تبدو أكثر شاعرية ومصداقية، وتتسم بالعذوبة من جانب صديقه، فقد قاده قلبه إلى هذا العالم لأول مرة، وأكدت أحداثها أنها تتشابه مع تجربته بهناء.

وعليه لم يشعر لطفي بنفس القدر من التعاطف مع علاقة خالد بكوثر .. تَعرّف خالد على كوثر في إحدى الندوات التي كانت تنظمها الإدارة العامة التي يتولى مسئوليتها في الوزارة .. كانت الندوة تحمل عنوان "التحديات النفسية لشباب الخريجين بين الواقع والمأمول" .. هكذا كانت الأفكار روتينية، وكانت العناوين تقليدية، وتحتاج كلماتها إلى تفكيك لمعانيها، وتبدو امتدادًا للمعالجات الأكاديمية التي ترتبط بذكريات الملل من الدراسة لدى الشباب، لم تتغير، ولم تؤد إلى أهدافها كما يجب، ويتوارث الروتين الحكومي تلك الأفكار البالية، ويحافظ عليها في كل درجات ودهاليز الدولة العميقة ..

شاركت كوثر في ندوة خالد مع مجموعة من شباب الخريجين، كانت هذه الموضوعات تَلقى اهتمامًا لديها لارتباطها برسالة الماجستير التي تقوم بتحضيرها، لم تكن المرة الأولى، فقد اعتادت حضور الندوات التي يتحدث فيها استاذها شوقي الطنبولي عميد الكلية السابق، وقد كان يُشرف على رسالتها في الماجستير..

شدته كوثر إلى شخصيتها، وانجذب خالد إلى رشاقتها، كانت تتميز بجسم ممشوق وجمال مقبول، حافظت عليهما بإيمانها وقناعتها بأهمية ممارسة الرياضة، فلم تلتحق بكلية التربية الرياضية للحصول على شهادة، بل كانت تُمارس الألعاب الرياضة منذ سنوات الطفولة، احترفت سباقات الجري في ألعاب القوى، سجلت أرقامًا متميزة في مضمار النادي الأهلى، وتصادف أن تكون كلية البنات واقعة بالقرب من فرع النادي الرئيسي بالجزيرة، وهذا ما جعلها تنتظم في التدريبات أيام الدراسة أيضا، وحجزت لنفسها موقعًا ضمن العناصر المهمة في تشكيلات المنتخب خلال العديد من البطولات العربية والأفريقية ..

لم يكن خالد من ذلك النوع الذي يجمع بين ممارسة الرياضة ودراستها، لكنه دخل المجال الرياضي للدراسة فقط، منحته التدريبات المرتبطة بالدراسة بعضًا من اللياقة البدنية، وشيئًا من التناسق في الجسم، لكن لم يكن رياضيًا حقيقيًا في يوم من الأيام، ولم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يفتقده، ويجده حاضرًا في كوثر ..

جذبته إليها بأشياء كثيرة..وعلى الرُغم من أنها قد تجاوزت عقدها الثالث بأربع سنوات فهي مازالت تلك البكر البتول، تتمتع بجمال مقبول، لا يرفضه أحد، وتتزين برشاقة في الجسم، وفي النهدين والفخذين، وترتفع بقامة تتفوق بها على خالد ببضع سنتيمترات، ولا يتفوق عليها إلا في السن الذي يكبرها بعشر سنوات أو يزيد قليلاً ..

انشغلت كوثر بالدراسة والتدريبات والبطولات، وسحبتها الدراسات العليا إلى المزيد من التفوق والنجاح، فلم تتجاوب مع أنوثتها في الدخول إلى عش الزوجية، وقامت بتأجيل هذه الخطوة من عام إلى آخر، ورفضت الاستجابة للطارقين لأبواب ودها بالخطبة ومن ثمّ الزواج، فأحبطت المحاولات من راغب إلى آخر حتى تجاوزت عقدها الثالث، وتضاعف القلق على مستقبلها الاجتماعي لدى أسرتها ..

تسللت الكآبة إلى وجهي أبويها من شبح العنوسة التى دخلت فيه ابنتهما بإرادتها، فقد أصبح لشقيقها الأكبر عثمان أبناء على ابواب المرحلة الثانوية، وتزوجت شقيقتها الصُغرى ميرفت وأنجبت ولدين، ومازالت كوثر تحتضن العزوبية، وأخذت موقعها في طابور العنوسة الذي يضم ملايين من اللائي فاتهن قطار الزواج..

وعليه كانت أطيافٌ من الندم تنتابها على فترات، وتأسف في قرارة نفسها لأنها لم تهتم بإنوثتها أكثر، وأهملت هذا الجانب طوال سنوات الدراسة والتدريبات لصالح طموحاتها العلمية والرياضية، ولم تَتَح الفرص الكافية لبعض المحاولات التي كانت تطرق أبواب قلبها، أو عروضٍ لخطبتها..

على أن أكثر ما كان يؤلمها، وما كان يؤنّب ضميرها ما تراه من طبقات حُزن تتراكم على وجه أُمها، وتستشعر آلامها لصدها محاولاتها ومساعيها ونصائحها، وكانت تتجنب مواجهتها ورغبتها اليومية للحديث معها باستفاضة، وترُد عليها بردود وإجابات مُقتضَبة وغير مُشجعة، وكثيرًا ما كانت تجد والدها جالسًا بمُفرده في صالة البيت أو البلكونه، وتكون هى خارجة من غرفتها لحاجة ما، ولحاجة في نفس يعقوب يُحاول أن يستبقيها معه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، فيمتد الحديث بينهما إلى آماله وآلامه وأنّاته على حالها، فتضطر إلى إعادة تكرار طمأنته وتقول له " أنا في أحسن حال ومش ناقصني حاجة "، وتضطر للإنسحاب إلى غرفتها..

يئسَ الأبوان من محاولاتهما معها، لكن الأُم لم تتوقف عن بَث همومها ومتاعبها وآلامها عن حال ومصير ابنتها إلى صديقاتها وأقاربها ومعارفهم، فلم تكن ردود افعَالهن معها بذات الحميمية والحنيّة والأماني المُخلصة للوالدين، لكنها أقرب إلى الاستفزاز والتنّغيص والتنّكيد، فجعلت كوثر من مثل هذه المواقف وسيلة للتسلية والسخرية بينها وبين صديقاتها في العالم الافتراضي، تلجأ إلى ذلك العالم لكي تُسكت الألسنة من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي تبعث برسائل غير مباشرة للجميع بحالتها، وأنها بدأت تلتفت إلى ما فاتها، فتختار واحدة من تلك الحوارات المُستفزة، **وتنشرها على صفحتها :**

- إيه ده .. هو إنتي لسه ما اتجوزتيش ؟!
- لأ .. لسه يا طنط !
- ولا اتخطبتي !
- " بمنتهى الخُيلاء، والاحساس بالتميُز والتفرُد "لأ.. لسه برضه!
- إزاي ده !! دا احنا كنا بنقول إنك ها تتخطفي خطف !
- ماهو علشان كُنتوا بتقولوا كده !!

ويتعاطف معها جميع من على صفحتها، ويتحول هذا الحوار إلى مادة خِصْبة للتحفيل، لكنها كانت ترُد على كل تعليق بما يؤكد دواخلها ورسالتها :

- اللي حصل معاها حوار زي ده ، ما تعملش لايك.
- حاضر .. أشطُب اللايك يعني .
- لا إنتي أكيد ما حصلش معاكي حاجة زي كده..
- آه .. على رأيك العرسان كتير بس النِفس.
- ربنا يرزُقك بواحد ابن حلال، ويكون يتقي ربنا..
- وماله .. مش عيب.
- ما تقلقيش هما آخرهم يسألوا باستفزاز وبس.
- يا سلام لو كل طنط من النوع ده تخليها في حالها..
- آه والله .. كانت ها تَعمَر..
- لا .. هما مِرَكّزيييييين دوت كوم .. مُنتبهيييين دوت نت..

*****

وجد خالد في كوثر كل ما كان يفتقده في زوجته رضا .. تزوج رضا جعفر في نهاية عِقده الثالث، وكان ذلك بعد مرور خمس سنوات على التحاقه بالعمل في المجلس الأعلى للشباب والرياضة، والذي تحول فيما بعد إلى وزارة لها مقعد في اجتماعات مجلس الوزراء، حصل خالد على هذه الفرصة من خلال الاستثناء الذي أقرته الحكومة في منتصف العقد الأخير من القرن العشرين، كان يقضي بتشغيل الحاصلين على تقدير جيد جداً فأكثر في الحكومة..

كان خالد يكبر رضا بعامين فقط، وهي بالنسبة إليه بنت الجيران، الذين يسكنون نفس الشارع في مدينة الفيوم، حصلت على ليسانس الآداب في اللغة الانجليزية، وعملت مدرسة لغة إنجليزية بنظام التدريس بالحصة في العديد من مدارس الفيوم..

كانت حظوظها قليلة جدًا من الجمال والقوام، لا ترتدي إلا الملابس الطويلة، وتتحجب بغطاء يبدأ من الرأس إلى منتصف جسمها، لم تُجذب أحدًا إليها، ولم يلتفت إليها أى شاب أو راغب في الزواج .. واضطرت والدتها الحاجة زينب أن تتحايل بالود والهدايا والعزومات على الست حميدة والدة خالد ..

ومثلما يعتبر الطعام الوسيلة التقليدية للزوجة لكي تصل به إلى قلب زوجها، فقد كانت هذه الوسيلة التى استخدمتها الحاجة زينب مع جارتها حميدة، كانت تؤمن بجدّوى المثل القائل " أطْعِم الفُم تَستحِي العين ".. وعليه كانت تُكثِر من هداياها إليها، وتُداوِم على عُزوماتها لها ..

ولم تجد الحاجة زينب صعوبة في ذلك، فقد كانت تحصل على ما تريده من بقايا وأجزاء الذبيحة التي يقوم ببيع لحومها يوميًا زوجها المعلم جعفر، الجِزَارة هي مصدر رزقه الوحيد للصرف على بيته وأولاده الخمسة، كانت رضا أوسطهم .. لكن دهاء الحاجة زينب كان كفيلًا بإقناع زوجها، وتجنيد جارتها لتنفيذ خطتها في تزويج رضا من خالد ..

انتقل خالد ورضا إلى عش الزوجية في الجيزة، شقة متواضعة في محيط شارع الملك فيصل بالقرب من ترعة المريوطية .. قضيا خمسة عشرة عامًا في زواجهما .. كان ارتباطًا بلا رابط بينهما من المشاعر العاطفية .. اضطر إلى التعايش معها كما يفعل الملايين الذين يُريدون بيتاً للسكنى، والذين يرضون بمأوى للمبيت، لكن لم يكن راضيًا عن مجمل حياته معها .. يقضى وطره فيها كما يقضي حاجته في الظلام، ثم ينتابه ذلك الاشمئزاز الذي يخلفه ذلك النوع من الجماع، فيندفع بكل المشاعر المتناقضة إلى الحمام..

يترك الماء ينهمر على جسمه بينما يدعك نفسه بالصابون من أعلى إلى أسفل، لكي يتخلص مما لحق به من توابع هذا اللقاء الذي لا يسبقه شيء على الاطلاق من مقدمات الرجل مع المرأة .. وربما تكون الثمرة الوحيدة لهذا الارتباط هو إنجابها لولدين أكبرهما رامي الذي أكمل إثنى عشر عامًا يوم حصوله على الشهادة الابتدائية متفوقًا في مدرسته ..

لا ينسيان ذلك اليوم، تصادف أن يكون يوم تنصيب الدكتور محمد مرسي رئيساً خلال مراسم عسكرية بالهايكستب، ودبَ بينهما خلاف شديد حول الرئيس الجديد الذي يأتي من خَلفيّة مدنية، وينتمي إلى جماعة الإخوان المُسلمين، تتعاطف معهم رضا، وتميل إليهم وجدانيا، وتجمعها بأعضائها ذلك الشعور الدفين بالاضطهاد والتربص والإحساس بالظلم، وتطور بينهما خِلاف الرأى إلى لكمات وركلات على وجه وجسد رضا ..

ومثل هذه الواقعة وكالعادة مع غيرها، تؤدي إلى خروج خالد من البيت، ويبدو منتشيًا، يمشي مُختالًا لكي يكمل سهرته على المقهى، بينما تنزوي رضا في أحد أركان الشقة تنتحب وتندب حظها، ولا يُخفف عنها إلا مواساة إبناها رامي وشقيقه عمرو الذي يصغره بأربع سنوات، ولا يُفارِقانِها حتى أنها الحقتهُما في نفس المدرسة التى تعمل بها مُعلمة..

تقع المدرسة في طريق ترعة المريوطية، وعلى بُعد خطوات من البيت، ودائمًا ما تكون أول الحاضرين وآخر المغادرين من المُدرسين والمُدرسات، فارتاحت لها إدارة المدرسة، وتمَسّكت بها من عام إلى آخر، وراق ذلك الوضع لهوىَ رضا وابنيها، ولم يكن عالمهُم سوى هذا المحيط .. ولم ينتقلوا خارجه ..

******

لم يكن الحُب في صدارة الأسباب التى دفعت خالد إلى كوثر، لكنه كان مبهورًا بها، وشدته جاذبيتها إليه أكثر، وكلما رآها أو إلتقى بها يتذكر حاله مع رضا، ويندب حظه العاثر الذي قاده إليها، وظل طوال سنوات ارتباطه بها يُلقي باللائِمة على أُمه التي راوَدته بها كثيرًا، وتُضاعِف من إلحاحها بها عليه، وكلما أشبعتها الحاجة زينب بطواجن اللحمة مع البامية المقعمة، وتُزينها له بالكلام، وكلما ارتوت شهوتها الدائمة إلى الأكل بصحون من شوربة الكوارع المعمولة من أطراف وعظام وأحشاء ذبيحة المعلم جعفر ..

لذلك ظل خالد طوال هذه السنوات يُردد على مسامع أُمه كلما اختلف معها، ويقول لها:

- ياوليّة إنتي ناسية إنك اذتيني بلوة إسمها رضا، وقبضتي التمن طاجن بامية وصحن كوارع ..

وظل طوال هذه السنوات يُعاقب زوجته بعدم الظهور معها في مكان عام .. ولم يذهب بها إلى أى مناسبة اجتماعية .. ولم يصطحبها معه إلى واحدة من المدن الساحلية أو المصايف وكان يقول لها بتهكم وازدراء:

- كفاية عليكي ترعة المريوطية .. أهي برضه فيها ميه، والحقي خدي نصيبك منها قبل ما يحوّلوها لصرف مغطى ..

على أن هناك سببًا آخر كان يشد خالد إلى كوثر،ألا وهو عمرها الذي يبدو مقبولًا ومناسبًا لفارق السنوات بينهما .. والأهم أنها مازالت تحتفظ بأنوثتها وجاذبيتها وجمالها مما يبشره بتجديد شبابه معها، وقد يُتيح له الارتباط بها الدخول في حياة زوجية حقيقية، لكن الشيء الأهم الذي كان يجعله متفائلًا بإمكانية تحقيق حلمه في كوثر، هو ذلك الإحساس بالقلق الذي كان يستشعره يتسلل إلى مخاوفها من اقتراب دخولها في مرحلة العنوسة، وكان يبدو ذلك عليها بوضوح ببعض تنازلات في شروطها للزوج المرتقب، وهذا ما شجعه أكثر لكي يُغامر، ولكى يرتفع بمستواه الاجتماعي، ويُعيد تجميل صورته العائلية حال ارتباطه بكوثر:

- أنا مش قادر أصدق أن الناس بقت عميا للدرجة اللي تخليهم ما يخدوش بالهم من واحدة في جمالك ورشاقتك وشياكتك، "ثم وكأنه يتعجب، وكأنه يتحدث إلى نفسه"، دا إنتي تشرفي أي حد يرتبط بيكي وأنا أولهم.

أفصح خالد بهذه الكلمات إلى كوثر بعد اطمئنانه أنه وصل معها إلى النقطة التي تسمح له بهذه المغامرة، كانا يجلسان في كافيتيريا حمام السباحة داخل المركز الاوليمبي لتدريب الفرق القومية في حي المعادي ..

وتصادف أن يكون ذلك اليوم بعد افتتاح واحدة من الدورات التدريبية .. وكانت بمثابة الحدث الذي استعاد به المجلس القومي للرياضة نشاطه بعد عدة أشهر من اندلاع ثورة يناير، خلالها توقفت أنشطة، وتجمدت أُخرى بسبب كثرة الاحداث والفعاليات والاعتصامات الفئوية.

وخلال هذه الاشهر تحمست الاغلبية الصامته، المتواكلة، المغلوبة على أمرها وحالها، تناولت حبوب الشجاعة بعد أن اطمأنت أن الشباب قد فعلوها، حركوا المياه الراكدة، كشفوا هشاشة النظام وأدواته القمعية، ووضعوا البلاد على طبق من ذهب، فتكالب عليه راغبو السلطة ومراكز قوى وتيارات أُخرى، تمامًا مثلما انفلتت فئات أُخرى، ترفع شعارات ومطالب بالتسوية والعدالة.

بعد أشهر من الجمود، وافق المجلس على اقتراح خالد باستعادة النشاط بدورة تدريبية داخل القاعات، وعليه لم يكُن هناك ما يمنع أمنيًا، وأوّلَاها المجلس اهتمامًا أكبر من المعتاد، ولذلك حرص الرجل الثاني في ترتيب القيادات على حضور الافتتاح.

يومها اقترح عليه الدكتور شوقي الطنبولي تقديم فقرات افتتاح الدورة في صورة برنامج بنوع من التجديد والتنظيم، وأيضًا للتغيير لما هو متعارف عليه في الدورات السابقة، ورشح أيضًا كوثر للقيام بمهمة تقديم الفقرات والربط بينها .. واستطاعت أن تقوم بالدور على أكمل وجه، وأظهرت موهبة وقدرات أُخرى، نالت الاعجاب والامتنان من خالد والحضور ..

وعلى مدار عام وبضعة أشهر كثف خالد من اهتمامه بكوثر، ولفت انتباهها إليه، كان يدعوها للندوات، ويضعها في أولويات المشاركين في الدورات التدريبية، ونقلها من خانة المستمع ودور المُشارك إلى كُرسي المُحاضر، واقتربت بينهما المسافات، وتقاربت العبارات وتعددت اللقاءات، فلم يجد صعوبة في التسلل إلى مشاعرها، فأولته حنينا وإشفاقا على حالته ومآسيه مع زوجته، كانت متاعبه وآلامه وعدم إحساسه بالحياة العائلية، هي القاسم المُشترك لحكاياته وأحاديثه معها..

يتعمد عقد المُقارنات بينهما في كلامه معها عن زوجته، كان هذا المدخل هو فقرته الأساسية في حواراته ومكالماته، وبها لم يكسب تعاطُفها وإشفاقها عليه فقط، بل ازداد حنينها إليه، وتحركت مشاعرها شيئًا فشيئًا، وازداد احساسها به وحاجتها إليه كلما جدد آمالها وأحلامها بأنها مازالت في المنطقة الآمنة، ومازالت مرغوبة، ومازال قطار الزواج قادما إلى محطتها ..

أجاد خالد التركيز على هذه الزاوية في معنوياتها، استحوذ على تفكيرها بمشاعر الحنين والإشفاق عليه، وتحولت هذه المشاعر إلى حب يعتصرها وتفضحها به عيناها، وتقودها لهفتها إلى استكمال ما انقطع في اللقاءات والخروجات بمكالمات تليفونية، فأيقن ابن حميدة أن الفرصة قد حانت لكي يبدى برغبته فيها، ولكي يستطلع رأيها في عرضه إليها ،سألها خلال عشائهما على إحدى البواخر النيلية:

- إيه هي شروطك ومواصفاتك في الرجل اللى هتتجوزيه يا كوثر؟

نظرت إليه بعينين حالمتين، وقبل أن تضع قطعة سلطة في فمها أعادتها إلى الطبق، وبعد تنهيدة ارتياح أعقبتها بابتسامة ردت عليه:

- المهم إنى أكون بحبه، وهو بيحبني ..

- مايهمكيش لو كان صاحب تجربة، وعنده أولاد ..
- الكلام ده مابقاش يقلقني، لأنه بالحب تزول العقبات، وبتهون الصعوبات ..

ومثلما تنقض الأفعى على فريستها في اللحظة الحاسمة، وجه لها السؤال المباشر:

- ياترى يا كوثر بتحبينى، وتقبلي تتجوزيني زي ما أنا محتاجلك ..

وكأنها لم تصدق أنها تسمع الكلمة لأول مرة .. تتجوزيني .. كلمة انتظرتها طويلا .. وكادت أن تفقد الأمل في سماعها قبل أن تفتح مفاتيح قلبها ومشاعرها لمآسي ومتاعب خالد مع زوجته .. توقفت عن مضغ ما في فمها من قطعة كُفتة .. وتعمدت ان تزدردها في جوفها بسرعة .. أرخت عينيها، وتحسست إحمرار وجنتيها وهي ترد باستحياء:

- لو ما كُنّتش بحبك، ما كُنّتش أوافق إننا نتقابل لوحدنا ..

# ٨

انطلق شريف في علاقته مع عزة، وأطلق لمشاعره العنان، اعترف بحبه لها، استسلم لتأثيرها الأُنثوي الطاغي، لم تكن صارخة الجمال، لم يكن جمالها من ذلك النوع المُتطرف، في بشرة شفافة وكأنها من زُجاج الكريستال، كانت صافية، لكن لم تكن كالحليب بلمسة ناعمة مخملية..

كانت متوسطة الجمال، ذات جاذبية طاغية في عنفوان نهديها، في أنوثتها البادية في صدر عفي، يتناسق جسمها في كبرياء، من اعتدال الأكتاف إلى حرارة الأرداف، في نظرات عينيها الموحيتين بلونهما العسلي، في شمخة أنفها مع أقواس رموشها، في شفتين عنابيتين آتيتين من صحراء كردفان، في عبارات حب تختارها بعناية، وتبثها يوميًا على مسامعه فتُلهب بها مشاعره ..

اعتاد شريف على لقاءاته مع عزة، أدمنها عادة في برنامج يومي يبدأ في العمل، يحوم حولها، يُراقب تحركاتها لكي يظفر ببعض الوقت في انفرادات يتبادلان فيها الكلمات واللمسات، تفتعل هي الاسباب لكي تذهب إليه، تلاطفه، تنقل إليه الاخبار، وتكمل حديثا لم يكتمل، وَوّلدَ غيره اليوم، وعندما تحين ساعة خروج الموظفين، يسبقها إلى حيث تواعدا، وتنطلق هي إلى محطة السادات أسفل ميدان التحرير، وتنزل بعد محطة واحدة، في الأوبرا ..

يستقلان سيارته التى ركنها في شارع مجلس قيادة الثورة، ينطلقان إلى حيث ينعمان بخلوتهما في مراسي وأندية وحدائق تطل بعشاقها على النيل، في كبائن وعلى أسطُح وجنبات المراكب والبواخر النيلية، لا يلتفتان إلى أحد حولهما، لا يشعران بأحد من المحيطين بهما، لا يسمعان إلا همس المشاعر، وبدفء أنفاسهما يتبادلان كلمات حب رقيقة تستدرج بها عزة تدفقات أحاسيسه واعترافاته، فيهيج ويبتهج، ويُلهب رغباتها فيه، وأحاسيسها إليه، وتُلقي برأسها على صدره القوي، وفوق عضلات رسمتها التمارين الرياضية، وبكلتا يديها تحتضن عضلات ذراعه المفتول ..

ومثلما يصطحبها إلى منتجعات الجزر الرابضة في أحضان النيل .. كانا يتجولان معا في القناطر الخيرية، ويذهبان إلى الاهرامات، وإلى استراحات الريف الاوروبي، السليمانية، سقارة، مولات وكافيهات طريق الاسكندرية الصحراوى، وبعناق عاشقين يقطعان المسافات إلى الإسماعيلية وأطراف قناة السويس، والعين السخنة، يذهبان إلى الإسكندرية، وإلى الساحل الشمالي في أيام الأجازات الاسبوعية ..

في كل مرة لا يستطع مُقاومة أنوثتها ودلالها وإيحاءاتها .. يُعاني كثيرًا كلما حاول كَبْت رغباته فيها، فتفضحه مشاعره ورغبات عينيه، ويكشفه تَصلُّب شرايينه، تتدفق فيها دماؤه إلى أبعد مدى تستطيعه، تضحك وهي تداعبه بلا حياءٍ، تُلامسه بحركات الخبيرة العارفة باللحظات التي تستحوذ عليه أحاسيسه، وبإيحاءات العالمة بمكامن الإثارة، وهو غارق في عرقه، يُحاول إخفاء انتعاش عروقه أمام ناظريها، فتهاجم هى أكثر، وتحتضن وجنتيه المتصببتين بكلتا يديها، تُجففهم، وتشجعه بقبلات ناعمة تزيده إثارة ..

يتجاوب أكثر، يُبادلها، ويُبّدل هيئتها، وهما في غرفتها بمنزلها في حلوان، وقد حرصت على تهيئة البيت لذلك، فتذهب بإبنها إلى صديقتها ومكمن سرها في العمل، وتذهب أمها إلى ارتباط ما .. تبرره عزة لشريف بأنه ارتباط عمل .. فيخلو لهما البيت، ويختلج جوّهُ بمشاعرهما وجولات لقائهما، عنَاقَهما، أحضانهما التي يتطاحن بها جسداهما العاريان من كل شيء، إلا من ذلك اللباس الذي مازال يحجب مكمن أنوثتها، ويمنعه من ارتياد ما هو مُباح في غُرَف الازواج ..

اعتاد الحبيبان على هذه اللقاءات الهائجة المُتأججة .. أدمنت عزة تهيئة المكان وجوّ البيت للقاءات الإرتواء والاشباع، حتى خالت خواطر شريف بأن أمها على دراية بما يدور بينه وبين ابنتها .. ولم تكن شكوك شريف في هذه الزاوية ببعيدة عن حقيقة تعهدات ووعود عزة لأمها .. كانت عزة تواجه إلحاح أمها بالموافقة على رغبة طليقها "حسام" بالعودة إليه وإصلاح ما بينهما من أجل ابنهما، **فترد عليها:**

- خلاص يا ماما حكايتي مع حسام انتهت بلا رجعة، وأنا دلوقتي هادخُل في ذمة راجل تاني وبحبه " ثم بنبرة فخر، وبإحساس القادم على منصة التتويج " المستشار شريف ..
- للدرجة دي إنتى ضامنة إنه هيتجوزك؟
- طبعا، وأوعدك بكدة " ثم وهي تُقبّل أمها"، وفي أقرب فرصة كمان ..

تبتسم الأم، ثم تعود إلى حالة الشك والقلق، وتقول:

- وتفتكري إنه هيضحي بمراته، وابنه، علشان خاطرك ويتجوزك؟

تبتسم عزة، وبتنهيدة ارتياح ترد:

- أيييوا ،وأنا متأكدة، لأنه بيعاني منها، وعايش معاها في جحيم، ومَعِرفْش الحُب إلا معايا ..

وبعد فترة صمت .. تُعِيد عزة طمأنة أمها، وبنبرة توسل قالت لها وهي تمسك بكلتا يديها:

- أنا متأكدة ياماما من اللي بقوله، وياريت تساعديني علشان أتجوز اللي بحبه ..

ولم تُخف عزة خطة الإيقاع بحبيبها في رباط الزواج عن والدتها، كانت تُجدد لها التأكيدات باقتراب خطواتها إلى شهر عسل جديد، وتزداد ثقتها كلما ازداد إقباله عليها ليروي صحراء مشاعره من شفتيها، من احضانها، وكلما أشبَعَ نَهَمه الجارف على نهديها، ويزداد لهيب الشوق في دواخلهما كلما أنعش بفأسه ذاكرة الحنين في أرضها الظمآن إلى الماء ..

لكن عزة كانت لديها قدرة الإبقاء على هذا الحاجب من قطعة القماش لكي تمنع نيرانه من عبور بوابتها الأخيرة، وهو لم يبق لديه إلا القليل من ظواهر الوازع الذي يمنعه من العبور، ويشده من شفا الوقوع في بئرها، ويشدها من الانهيار الكامل تحت ضربات معوله، ولم تكن تُبال بما يدور حولها، وبما يلوك علاقتها به .. بل هي التي أشاعتها بين صديقاتها .. تُفاخر بها، وتُبرهن على حُبه لها، على وَلَهِه فيها بإطلاعهن على رسائله التي يبثُها إليها كل يوم من تليفونه المحمول .. وكان هو يُعِيد إليها تلك الرسائل التي أرسلها إلى المقربين إليه ..

كانت خالته لواحظ، وصديقه لطفي أقربهم إلى نفسه، وأخَصُّهم في مكمن أسراره وخصوصياته، فيعترف ويُرسل إليهما :

- أنا لقيت الحب الحقيقي .. لقيت نفسي مع عزة ..

لم ينقطع شريف عن لقاءاته بصديقيه.. لكنها لم تكن كعادة لقاءاتهم اليومية.. بل اتسعت إلى مرة كل أسبوع، وربما أكثر.. لكن كان يتعمد الانفراد بلطفي في اوقات غير دورية، وفي مواعيد طارئة يستجيب لها لطفي لإحساسه بحاجة صديقه إلى الفضفضة.. لم يبخل عليه بصدق نصيحته التى أصقلتها تجاربه السابقة، وخصوصا تلك التي كانت مع هناء .. كانت ما تزال تعيش في ذاكرته، وتكمن في زاوية ليست منسية في وجدانه ومشاعره ..

لم ينس ذلك اليوم عندما كاشفه بعلاقته مع عزة، يومها استعاد ذاكرة حبه لهناء، استيقظ ذلك النائم في وجدانه، لم يقاوم رغبته في الفضفضة ولو بشيء من ذلك المخزون الجميل.. فتشجع شريف أكثر في اعترافاته بحبه لعزة ومعاناته مع زوجته، أطمأن أكثر لسرد التفاصيل، انحاز إلى آرائه، انحاز إلى أفكاره، انحاز إلى توجهاته.

*****

- عوقب العظيم إخناتون بالقتل لأنه وحَّدَ آلهة المصريين في آمون وأنشأ تل العمارنة كمدينة نموذجية، وارتقى بالفنون والآداب وبتسليح الجيش.
- من أعظم مقولات المتنبي " على قدر أهل العزم تأتي العزائم "، وكان أعظم أبيات شعره سببًا في قتله :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني

والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ.

- وبعده بألف عام وقرن، قال الشاعر أحمد مطر :

هذه الارض لنا قوت عيالنا هنا

يُهدره جلالة الحمار في صالة القمار

وكل حقه بها أن بعير جده

قد مر قبل غيره بهذه الآبار

******

هل كان لزامًا عليه أن يؤمن ويوافق على ما تُردده الأصوات المعارضة؟

هل يسير وراء ما يراه من أفعال وأحداث، وما يُردده الشباب وتلوكه الجماهير؟

لم تخل لقاءات المقهى عن مثل هذه المناقشات وتلك الحكايات.

هو حديث الساعة، وكل ساعة وكل يوم.

قطاع كبير من الجماهير وخصوصًا الشباب، أيقنوا حقيقة ما جرى، ما جرى على شرعية الانتخابات، وعلى حُكم الصندوق، وعلى أحلام الشباب، أحلام أرادت التغيير من حُكم الفرد إلى المشاركة في المسئولية، ومن الاحتكار إلى التعددية السياسية، وإلى تداول السلطة، وإلى حقوق الإنسان في العيش بكرامة، وإلى الإحساس بالعدالة الاجتماعية للجميع.

لم يكن جميعهم من تيار واحد أو جماعة بعينها..

كانوا هناك من شباب الثورة، من ألتراس مدرجات كرة القدم، من أبناء الأرياف، من أبناء الجنوب والشمال، من التيار الاسلامي ومن التيار الليبرالي، تآلفوا، وتعارفوا، وتعاونوا، وتفائلوا !!

شَاهَدَ الأمل في العيون..

شَاهَدَ الحماس في نماذج المستقبل..

شَاهَدَ وصال غارقة في دمائها، كانت شابة واعدة، حاصلة لتوها على ليسانس الآداب، أصابتها رصاصات قناص، رفض انسانيتها في محاولة نقل أحد الجرحى إلى المستشفى الميداني، كانت تستغيث بأنات خافتة، تُحاول أن تتشبث بفرصة أخرى في الحياة مع عشرات الجثث والمصابين..

كانت وصال تشع ذكاءً لافتًا، تتوهج بألمعية لا تُخطئها الوهلات الأولى، تعرف عليها لطفي في مجموعة خيام شباب الخدمات الميدانية .. ولفت نظره حماسها للثورة :

- بتشتغلى ايه يا وصال؟
- بشتغل مع نفسي ..

هكذا أجابت وصال على سؤال لطفي بعد قرابة أسبوعين من تردده على خيام الشباب .. وشده الى هذه الشابة نشاطها اللافت وقدرتها على إقناع أقرانها من شباب ورواد الخِيّام المجاورة بعد جدال يكون لها الغلبة فيه، تستطيع أن تصل بحجتها إلى قناعة من هو أكبر منها سنًا من الرجال والنساء، واذا لم يتحقق لها ذلك أحيانا، فإنها تستطيعه بالالحاح والدأب..

كانت تلفت إليها الانظار في كل شيء، كل شيء فيها صغير وبسيط ، بدءًا من قامتها القصيرة التي لا تتجاوز مائة وسبعة وستين سنتميترًا، يبدو جسمها نحيفًا، يتناسب مع وجهها في حجمه، مع قامتها وأطرافها .. لكن بها جاذبية في لون بشرتها التي تميل إلى البياض، في اتساع عينيها الحادتين، في دقة أنفها ونضارة شفتيها الورديتين، في منظر نهديها النافذتين ليؤكدان انتمائها الحقيقي إلى عالم الأُنوثة الشاعري، ويحتفظان لها بنصيب فيه .. لذا تبدو أصغر من عمرها الحقيقي الذي يناهز اربعة وعشرين ربيعًا، بينما تراها العيون في السادسة عشرة من عمرها أو أكثر قليلاً ..

ومما يُلفت أيضًا في وصال صداقتها لصابرين وارتباطهما معًا رغم اختلافهما في أشياء كثيرة .. لعل أهمها أن صابرين تتفوق بضخامة جسمها الذي يعادل حجم وصال بثلاث مرات تقريبًا، ولها قامةٌ أطوّل، وليس لها من عالم الأُنوثة نصيب إلا في مسحة من جمال الوجه، وميول بشرتها إلى اللون الابيض، وحتى في سنوات العمر، صابرين تكبُر وصال بعقد كامل، لذلك فهي قد انضمت إلى طوابير العنوسة .. لكنها لم تفقد الأمل ومازالت رغبتها في الزواج والارتباط تزداد، وتُراود تفكيرها، وتُداعب أحلامها مثل صديقتها وصال ..

على أن المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، هو ما اكتشفه في المستشفى الميداني .. فقد كان من بين المصابين الذين تعرضوا لسجحات بالغة في جانبه الايمن، وأصابته طلقة خرطوش عند مفصل كوعه الأيمن، كانوا باعداد غفيرة، وكانوا يرددون كالعادة تلك الشعارات والهتافات..

عاد لطفي مع المصابين، وقادته لجان الخدمات الميدانية إلى المستشفى الميداني للحصول على الاسعافات الاولية، فلم يشعر بآلام تضميد وتنظيف جراحه عندما أماطت له المفاجأة عن وجه طبيب شاب، كان عبد الرحمن أكبر أبناء شقيقته الكبرى .. ليلي .. وقد أنهى منذ أشهر قليلة فترة نيابته بعد تخرجه من كلية الطب .. كان يرد على تساؤلات خاله بابتسامات وإيماءات لإنهماكه في لف زراعه بالضمادات، **وقال بابتسامة أكبر :**

- يا خالي أنا مهنتي إنسانية بالدرجة الأولى،علشان كده أُمي مقدرتشي تمنعنى من مشاركتي كطبيب، وفي الأول والآخر أنا مش معارض أو ناشط سياسي .

ابتسم لطفي .. وأكتسى وجهه بملامح الارتياح وعاد الهدوء والسكينة إلى وجهه، ونظر إلى ابن شقيقته بعينين راضيتين وقال:

- ربنا يحميك .. ويبارك فيك يا إبنى .. ياه دا إنت فكرتني بمواصفات جدك عادل اللي كانت بتحكيها لينا جدتك ..
- وعلى فكرة يا خالى .. أنا مش لوحدي هنا ..

ألقى عبد الرحمن بهذه الكلمات على خاله وهو منهمك في تأدية واجبه .. وابتسم وهو يلتفت إلى عيني خاله، وكأنه يبوح له بمفاجأة أخرى، قال وقد ازدادت ابتسامته اتساعا:

- بص يا خالي على يمينك .. شايف الشابين اللي بيساعدوا أحد المصابين، وبيرفعوه على السرير هناك ..

بدت الدهشة على لطفي، وقال متسائلاً:

- مش ده عادل ابن خالك زكريا .. ويا ترى مين اللى جنبه وبيرفع رجلين الراجل المصاب على السرير ..
- دا عزمي أصغر أولاد الخواجة شكري الفكهاني، وهما منتظمين معانا من بداية الأحداث، وانضموا للجان الشعبية، وكمان بيساعدوا في نقل المصابين والمرضى للمستشفى الميداني زي ما إنت شايف ..

بتنهيدة ثقة وارتياح نظر لطفي إلى ابن شقيقته وأخذ يردد،وقد لمعت عيناه بالدموع :

- اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ..

وأحاط به الشُبان الثلاثة، تبادل معهم عبارات الود، لم يقطعها سوى صوت رقيق يقول له :

- حمدلله على سلامتك يا أستاذ لطفي ..

التفت إلى مصدر الصوت.. أبدى سعادته بهذه المفاجأة.. وقال متسائلاً:

- وصال .. إيه المفاجأة الحلوة دي .. لكن إنتي كده إتأخرتي أوي .. المفروض إنك تكوني في البيت دلوقتي ..

ردت .. وقد ازدادت ابتسامتها تُزين وجهها الرقيق، وجعلت إجابتها تشمل صديقتها صابرين، وقالت:

- جينا نطمن عليك لما سمعنا إنك من بين المصابين ..

وبابتسامة أخرى قالت صابرين:

- الوقت لسه بدري، الساعة مجتشي اتناشر، والدنيا صيف ..

ابتسم لطفي.. وإختلطت مشاعره نحوهما بين الامتنان والإعجاب ..

استعاد تفاصيل الأحداث وهو يشاهدها عبر شاشات التلفزيون، كانت تبثها الفضائيات نقلا عن التلفزيون الرسمي..

شاهد البكاء والعويل ونحيب الأمهات والاشقاء على مئات القتلى والمصابين.

شاهد صابرين تتحامل على إصابتها، وتحاول حمل صديقتها الغارقة في دمائها..

تحاول إنقاذ وصال...

# ٩

تلبدت الأجواء بغيوم حالكة..

غيوم من التشفي والكراهية ..

تبادُل اتهامات بالخيانة والعمالة ..

قادتها فضائيات تبُث سموم الضغينة والبغضاء..

زادت الفُرقة، اتسعت هوة الخلافات ..

اتسع دافِع الاستقوّاء بالخارج ..

أُصيب المجتمع بشرخٍ هائلٍ، دخل في انقسام حاد لم يلتئم لسنوات تالية.

انقسام في البيت، في الشارع، في العمل، كأنها طَّامْةٌ ألمَّت بالجميع، وفرَضّت عليهم الفِرَار، المواجهة، التحدي، واللدّد في الخصومة، ولكلٍ موقفه الذي لا يتنازل أو يتزَحّزح عنه قيد أنمُلة، ولم يكن غريبًا أو جديدًا أن يجد لطفي وشريف نفسيهما في مواجهة مع صديقهما خالد ..

ثبَّت كل دهّان أركانه في نفوس الذين أيدوه، وفي تحالُف الذين استخدموه، وفي دعم الذين وظفوه، وفي تواطؤ الذين شرعنوه .. حتى أنه كان يبدو في نظر الذين أيدوه بمثابة " البسملة " التي تسبق كل كلام لمشايخ السلطان، ولأصحاب العمم في بلاط الملوك، ويسبق كل مكتوب لصحفيي كل الموائد .. ويبدو بمثابة الوضوء الذي يسبق الصلاة عند الذين استخدموه من أصحاب العروش..

كانت الأجواء والمعايير انقلابية، انقلابية على هوى كل دهّان، وكانت أشبه كمن يخلط خلطة، أو يطبخ طبخة، أو يعجن عجنة، ثم يقع في حيرة بالغة، ويُفاجأ بعدم معرفته، وعدم درايته، بما هو مُقدم عليه، ويلجأ إلى الفهلوة في تقدير المقادير، ويُساوي بينها، فيخلط مع كيلو الخضار ما يعادله من كل صنف آخر مثل الماء والزيت والصلصة والثوم والبصل، وكذلك الحال في السلاطة، يضع مع الخيار أو الطماطم ما يعادلهما من الملح أو الخل..

تتصاعد مناقشات الاصدقاء الثلاثة، وككل إثنين أو أربعة أو خمسة أو أضعاف ذلك عشرات ومئات المرات، وتزداد خلافاتهم في صراع يتفاقم بينهم في وجهتي نظر، تعلوان في صدامهما، وتتناطحان نِطاح الذكور في جاموس البراري، وهكذا اعتاد ولم يتغير برنامج لقاءاتهم على المقهي..

عادت هذه الأحداث إلى ذاكرة لطفي، كانت حاضرة بتفاصيلها، لم يمر عليها سوى بضْع سِنين، كانت عِجافًا، كانت دامية، لم تمحُها الأيام والأحداث، حفرت تفاصيلها الآلام، لم ينس ذلك اليوم، تلقى اتصالًا تليفونيًا في مساء أحد أيام الغليان من شقيقته ليلى، لم يستطع أن يتبين كلماتها من أجواء المناقشات الحادة مع نحيبها وبُكائِها .. فابتعد إلى مكان أكثر هدوءًا ، **وهو يردد :**

- بتقولى إيه ،إيه اللى حصل لعادل ابن زكريا
- .....
- طيب ليه زكريا ما اتصلش بيّا هو وعبد الرحمن علشان أدور معاهم على عادل.
- .....
- طيب أنا هاتصل حالًا بيهم وهاكون معاهم، وإنتى خليكي جنب الحاجة علشان عادل كان غالي عليها وبيفكرها بأبونا الله يرحمه.

كان الحفيد هو الأقرب إلى قلب الجِدّه، فهو يحمل نفس الإسم وله نصيب كبير من ملامح وجهه، لذا فهو يُذكّرُها به دائما، ودائما ما تسترجع ذكرياتها معه وحُبها الكبير له الذي لم يدُم طويلا، استغرقت رحلتها معه أقل من عشر سنوات أنجبا خلالها أولادهما الثلاثة، وتزامن ولادة أصغرهم زكريا مع الاجواء السياسية المتوترة التي سبقت حرب يونيو ٦٧ بين العرب وإسرائيل، واستجاب لدعوة المقاومة، حيث تواعد مع بعض أصدقاء وزملاء الدراسة، ذهبوا معه للدفاع عن بورفؤاد، تعمد أن يودع زوجته ويحتضن أولاده طويلا، ولم يشأ أن يُخبرهم بحقيقة مهمته وسفره، شارك مع رفاقه في الدفاع عن بورفؤاد، ونجحوا في تأدية الواجب، وعاد إلى المحلة بعد انتهاء المهمة، عاد بلقب البطل الشهيد..

ويبدو أن الحفيد قد سار على نهج الجد..

هذا ما توقعه، وما جال بخاطره للوهلة الاولى بعد اتصال شقيقته..

اضطر لطفي للإستئذان من صديقيه، ولمعت عيناه بالدموع **وهو يقول:**

- ابن أخوي كان مع المعتصمين، ومرجعش البيت من تلات أيام، وأبوه بيدور عليه بين المفقودين، وبين الجثث في المشرحة.

*****

رافق لطفي شقيقه زكريا ومعهما عبد الرحمن ابن شقيقته في رحلة بحث طويلة، كانت ثلاجة المشرحة المركزية محطتهم الأخيرة .. مهمتهم تَحْفُها العديد من المخاطر والتهديدات التي أحاطت بالمكان من كل جانب، فبجانب عوائق إجراءات الافراج عن جثث الاموات ، كان عناصر الأمن ينتشرون في المكان وبين أهالي القتلى والمفقودين، يتخفون في هيئة لا تثير الريبة فيهم، ولا تفضح مقاصدهم لاصطياد المطلوبين للإعتقال من الجماعة وبقية المُعارضين الذين ينتمون إلى التيارات الاخرى ، تعمد بعض هذه العناصر الامنية أن يظهروا في هيئات مشابهة لأقارب الضحايا، وارتدى أخرون زيًا ورداء مُشابهًا للعاملين بالمشرحة..

افترش أقارب وأصدقاء الضحايا الطرقات والساحة المقابلة لبوابة المشرحة، احتلوا كل الاركان والجنبات المحيطة بها، ينتحبون، يصرخون، يولولون من ويلات ما أصابهم من آلام وأحزان، عصفت بمشاعرهم المكلومة على فقدانهم لفلذات أكبادهم، وعلى أشقائهم وشقائقهم وأصدقائهم، حتى أن الاستمرار في ترديد عبارات التخفيف والتهوين على المكلومين في مصابهم لم يكن بنفس الحماس لدى الحاضرين، كانت الصور مأساوية، وأشد إيلاماً على النفوس، لم يستطع الباحثون عن ذويهم التعرف عليهم من كثرة التشوهات، خارت قواهم وفقدوا قدرتهم على الاحتمال من مناظر الجثث..

تتصاعد المُشاحنات، وتتعالى مناقشات حادة بين الأهالي وأطباء المشرحة، كانت هذه من الصور المعتادة على مدار الساعة .. الأطباء يصرون مُضطرين على تنفيذ التعليمات، تعليمات تُترجمها شهادة الوفاة للجثث التي أمكن التعرف عليها ..

كان هذا الإجراء الإداري يستخدم عامل الوقت في الضغط على أعصاب الأهالي قبل الإفراج عن الجثث، وغالبًا ما كان المكلومون يرضخون للضغوط، وبمرارة يقبلون، ولا يجدون شيئا من الأعذار سوى في القول المأثور "إكرام الميت دفنه" .

لم يستطع لطفي وابن شقيقته أن يُقنعا القائمين على ورديات عنابر المشرحة بتجاوز الوقت المسموح في محاولات البحث بين الجُثث، لم يصلوا إلى شيء حتى آخر اليوم الأول من تواجدهم بالمشرحة، لكن زكريا لجأ إلى الحيلة التي تفتح له أبواب الوصول إلى جثة ابنه، استخدم اللغة التي يضعف أمامها بعض من بيدهم سلطة إصدار التعليمات، وتحدث بها أيضاً مع المشرفين على الورديات المتعاقبة، ولم يحجبها عن صغار العاملين لكي يحصل على نفس الميزة، ونفس التسهيلات التي يحصل عليها العشرات من أقارب وأصدقاء الضحايا، كانوا يتواجدون على مدار الساعة، تتعاقب عليهم الورديات، وهم لا يتغيرون، يفحصون ويُراجعون أسماء وهوايات الجثث المعلومة الهوية، ويأخذون كفايتهم ووقتهم في التعرف على الجثث مجهولة الهوية .

صحيح أن عبدالرحمن اعترض على وسيلة خاله، واعتبرها تشجيعًا لفساد النفوس التي مازالت تتحكم في بعض المفاصل العميقة، وزادت نقمته على زملاء له في مجاله الذي أصبح ينتمي إليه، على أن لطفي لم يُمانع فيما لجأ إليه شقيقه، فقد كان الجميع في سباق مع الزمن، ومع الآلاف الذين زحفوا إلى المشرحة وغيرها من المستشفيات في البحث عن جثث ذويهم، وأحيانًا يكون أمل الاقارب هو العثور على ميّتهم لكي يوارونه التراب، ربما يُصبح المصاب أشد قسوة في حالة عدم العثور على الجثة، أو تحمل صفة مجهول في مقابر الصدقة .

وثمة شيء آخر فاجأ لطفي خلال رحلة البحث، كان المستشفى الجامعي محطتهم الأولى، لم يكن حالها بأفضل مما كانت عليه المستشفيات الاخرى، كانت أسوأ في المآسي والإهمال ومُعاناة الآهالي والمُصابين، ومن بين آنات وصرخات المصابين ترامى إلى سمعه أصوات خافتة، تتوجع وتتلهف آتية من طوارىء الحالات الحرجة، مُرددة اسمه :

- أستاذ لطفي، استاذ لطفي ....

توقف قبل خروجه من العنبر المزدحم بالمصابين وبالأهالي الذين يحيطون بالأسُّرة المتهالكة في هيئتها، وفي مكوناتها وفرُشُها الرْثة، وهو يتلفت يُمنة ويسُرة، ويتفحص الوشوش..

- إحنا هنا يا أستاذ لطفي...أيوه بُص على يمينك..
- مين وصال....صابرين....ألف سلامة... إيه اللي جابكم هنا..
- مش وقت الكلام في التفاصيل يا أستاذ لطفي، وصال حالتها صعبة ونفسيتها بقت سيئة جدًا، وعايزين نخرج من هنا بأي وسيلة..

سارع لطفي بإستدعاء مُرافقيه، أحاطوا بالصديقتين اللتين تتقاسمان سريرًا واحدًا في العنبر، وبدت وصال وكأنها تسترد معنوياتها، تسلل الارتياح إليها، وظهر ببطء في بريق عينيها، وسرت في أوصالها حرارة نشاط يدب ببطء في دورتها الدموية، ويبدو في توّرُد وجنتيها ليحل محل إصفرار وجهها الذي كان أقرب إلى الملامح التي تسبق شبح الموت، أخذ صدرها يرتفع بوّهج الإرتياح في أنفاس صعُّداء تتلاحق، وقد أمْسكت بيد لطفي تضغط عليها، تبُثها حالتها وحاجتها للخروج من المستشفى إلى عالم الاحياء..

طمْأنها لطفي بحديث الأيدي، وطلب من شقيقه زكريا أن يتصرف بسرعة لإخراج وصال وصابرين، لم يُخيب زكريا ظن شقيقه، وتعامل بالطريقة التي يُجيدها مع المشرفين على العنبر، وبعد أقل من نصف ساعة وجدت الصديقتان نفسيهما في الشارع، حيث كان في انتظارهما ميكروباص استدعاه عبد الرحمن، وتحرك بهم إلى أرض النعام حيث تسكن وصال..

عادت وصال إلى والدها وبيتها بعد أيام قضتها بين الحياة والموت..

*****

مع بزوغ فجر يومهم الثالث من رحلة البحث بين الاموات، تلقى لطفي اتصالًا من شقيقته ليلى، أربك حساباتهم، ومع نهنهاتها أخبرته بإصابة والدتهما بغيبوبة فاجأتها من شدة حُزنها على حفيدها، فاضطر إلى تكليف إبن شقيقته بالسفر فورًا إلى جدته لمتابعة حالتها بعد نقلها للمستشفى، كان عبدالرحمن في سباق مع الزمن لإنقاذ جدته خلال فترة الست ساعات المتعارف عليها طبياً من بداية الإصابة بالجلطة .. قضى يومًا كاملًا بجوار جدته في العناية الفائقة لقسم المخ والأعصاب، وبعد أن اطمأن على استقرار حالتها، استجاب لنصيحة والدته بالعودة إلى القاهرة لمرافقة خاليه في البحث عن جثة ابن خاله .

كان يومهم الرابع في المشرحة قد انتصف نهاره .. وبين عشرات جُثث المجهولين كان اليأس يتراوح على الوجوه المهمومة بمصابها، وأنهكها اليأس إلى درجة الإعياء، وكلما تهللت بعض الوجوه بالعثور على ضالتها بين الأموات! يتجدد الأمل لدى البعض الآخر، وهل يتجدد الأمل في مناخ يلفُه الموت؟! كان ذلك هو الأمل الذي يأمَله المكلومون في أبنائهم وأقاربهم، كان الرجاء هو التعرف على الجُثث، ما أغّربه من مناخ يُصبح فيه البحث بين الاموات هو الأمل، ويتحول فيه الرجاء هو الوصول إلى جُثة الحبيب، وإلى جُثث فلذات الآكباد...

- آآآآآآآآه يا ولدي .....

- آآآآآآآه يا نور عيني....

- آآآآآآآه يا زهرة عُمري كُله، هنقول إيه لأمك لما تشوفك كده...

صرخ زكريا بأعلى صوته، وارتمى على جُثة، لفها بذراعيه، واخذ ينتحب، قاوم محاولات شقيقه وابن شقيقته لإبعاده من فوق جُثة ابنه، كان نصف وجهها الأيسر مشوهًا تمامًا .. إلا أن الأب تعرّف على جثة ابنه من ملامح النصف الأيمن لوجهه، ومن تلك الوحمة التي كان عادل يشتهر بها أسفل أذنه اليمنى، وبها تأكدت قناعة زكريا، ودلل بها على صدق قناعته لشقيقه وابن شقيقته .

أنهى لطفي اجراءات استلام الجُثة .. وتضافرت جهوده ومساعيه مع زكريا وابن شقيقتهما في أن تتزين الشهادة بسبب الوفاة الحقيقي.

كان يوما مشهودا في مدينة المحلة، شيّع عشرات الآلاف العديد من النعوش، أطلقوا عليه يوم جنازات الشهداء .. زحف الشباب والآهالي يتقدمهم كالعادة عمال الشركات والمصانع في قلعة الصناعة، وجددت في النفوس ذكرى المظاهرات والاضطرابات التي كانت شرارة التمهيد لثورة يناير، ومن رحمها وُلدت الحركات المُناهضة لنظام مُحتكر للسلطة، ولمُخططات توريث الحُكم، ومن يومها عرف الشارع حركة كفاية، واشتهرت حركة شباب ٦ أبريل..

تعالت الهتافات في المسيرات تُردد "وحياة دمك يا شهيد .. النهاردة يومك علينا عيد"، وامتد سُرادق العزاء من الفرع الرئيسي لمحلات الأسرة إلى مسجد أبوالفضل الوزيري .. اقبل الأهالي إلى السُرادق يقدمون واجب العزاء للعائلة، هرولوا إلى السُرادق بعد أن زفوا الشهيد عادل زكريا إلى مثواه الأخير .

- رقد جُثمان الحفيد بجوار رُفات جده الشهيد ..

# الجزء الثالث

# قِطط وكِلاب

# ١٠

لا يعرف لماذا يزداد اهتمامه بالمخلوقات الأخرى، وتزداد لديه حالة من الحُزن والاكتئاب الشديدين، وبات لطفي يتمنى أن يُدخل نفسه وأفكاره في سجن من العُزلة، عُزلة من كل شيء، ومن الناس عموما، عُزلة من مشاعر أصابها تبلُّد تجاه ما يحدث في الشارع، من إنسان فقد الإنسانية، فقد الإنسانية وتخلى عنها حتى مع الحيوان، مع الأنعام التي خلقها الله له، وذلّلها له، ووهَب له فيها المنافعُ والمأكل والمشرب..

تنكّر هذا النوع لأفضال وأنعام خالقه عليه، تنكّر لكل شيء وتخلى عن إنسانيته، وهل يمكن أن تأتي الانسانية من الذي فقدها مع مخلوقات تنفعه ولا تضُره، وليس من المتصور أن يستعيد إنسانيته مع بني جلدته، وهذا النوع طوّعت له نفسه كل عمل يُخالف فِطرة الانسانية التي سوّاها الله، فاختار لها طريق الفجور، وزيَّنت له أذرُع المنفعة كل جريمة، وأفتى له مشايخ السلطان كل عمل ناقص، وكل مُخالف للفطرة التي وُلد بها..

تنهّد وتذكّر المقولة:

- صدق من قال : عنده وفاء الكلاب، ووفاء بعض الناس..

ثم ابتسم لمقولتين أُخريين، لكنهما عن القطط :

- زي القطط بسبعة أرواح.
- زي القطط .. أأكلّها وتخربشني.

سرح لطفي في خيال تساؤلاته، لماذا ترتبط الكلاب والقطط بالانسان؟ ولماذا هذه العلاقة هي الاكثر أُلفة وجدلا مع الانسان من الحيوانات الاخرى؟ وهل للحجم أوالتكوين الجسماني تأثير في الصفات المتعارضة بينهما، فرغم صفة الوفاء الغالبة في الكلاب، إلا أنها تتسم بالسذاجة والاستئناس وعدم التخوين لصاحبه من بني البشر، وهذا يبدو على النقيض في حالة القطط التي تتصف بالمكر وعدم التسليم والثقة الكاملين لبني البشر..

ولماذا ذكر الله سبحانه وتعالى الكلاب في القرآن الكريم، ولم يذكر القطط؟! بل إنه سبحانه كرَّم هذا الحيوان الوفي، بأن جعله ضمن المجموعة التي آمنت، وهربوا بإيمانهم ودينهم من القوم الكافرين الفاسقين، وأبقاهم الله نائمين بإرادة الحفظ والحماية في الكهف ثلاثمائة وتسعة أعوام..

وهل يوجد تفسير روحاني آخر لارتباط الشر والتعذيب للقطط بدخول النار؟ ولمصير فاعل الخير والتعامل الرحيم مع الكلاب بدخول الجنة ؟ وهذا ما ذكرته الآحاديث الصحيحة لنبي الرحمة والاسلام..

يذكر الحديث الشريف :

- دخلت إمرأة النار في هِرَّة " قِطة " حبستها،لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكُل من خشاش الأرض "، صدق رسول الله..وعليه فإنه بسبب هذا الجرم وليس غيره دخلت النار، ونالت أشد العقاب لأنها ارتكبته ضد مخلوق ضعيف له الحق في العيش والحرية تماما مثل بني البشر، والمُثير أن الحديث الشريف لم يحدد بخلاف هذا الجرم مكانة ومواصفات تلك المرأة في ميزان الخير والشر، فهل كانت صالحة أم فاجرة، وهل سبق لها أفعال الخير أم أنها من معتادي الأعمال الشريرة..

وفي حديث آخر :

- دخلت إمرأة الجنة في كلب وجدته ظمآنًا فسقته، ويكشف الحديث الشريف تفاصيل أُخرى عن هذه الواقعه الشهيرة والصحيحة، وهي أن الكلب كان يلهث بشدة ويكاد يحتضر من الظمأ في ساعة ظهيرة شديدة الحرارة، وكان بجوار بئر للماء لكن لم يكن لهذا المخلوق أي حيلة للوصول إلى الماء، وتصادف مرور هذه المرأة التي رق قلبها لحال الكلب، فنزلت إلى البئر وجلبت الماء في موقِها وهو ما تلبسه فوق خُفها، وسقت للكلب حتى الشبع، فكافأها الله مقابل هذا العمل وتلك الرحمة تجاه هذا المخلوق، وأدخلها الجنة..

ومن المأثورات والدروس المستفادة للبشرية في هذه الواقعة، هو أن عملًا واحدًا رحيمًا خالصًا لوجه الله قد يكون سببًا في غفران كافة الذنوب والخطايا، وتكون الجنة جزاءً له، فيُذكَر أن هذه المرأة كانت غانية من بني اليهود، أي أنها كانت تحترف العمل في الدعارة، ومع ذلك غفر الله لها، وأدخلها الجنة بسبب عمل واحد، لكن تجلت فيه معاني الرحمة والحنان تجاه مخلوق له حق في الحياة، وفي الماء الذي جعل منه الله كل شيء حي..

- الذي لا يحنو على مخلوقات الله، لا يستحق رحمة الله عليه بالخير والبركة والنجاح، ولابد أن يكون له الخزي في الدنيا والآخرة..

ردد لطفي في نفسه هذه العبارات، ومن يومها تغيرت نظرته لأشياء ومعتقدات وقوالب كثيرة، أخذ يتسلل إلى وجدانه ذلك الوازع، تسري في نفسه تلك الاحاسيس الجديدة. ولأول مرة يشعر بمسئولية مزدوجة تجاه ابنته روزان، وتجاه قطتها "ويني"، ويني هو الاسم الذي أطلقته روزان على القطة، أنقذتها من الموت في الشارع منذ ستة أشهر، كان عمرها أقل من شهر عندما عثرت عليها تموء وتتضور جوعا بعد أن فقدت أمها، وتركتها وحيدة تُقاوم الموت في شوارع مُزدحمة بالناس والسيارات..

يومها لم تجد روزان صعوبة في إقناع جدتها ووالدها، واحتفظت بويني ورعتها حتى كبُرت ووصلت إلى درجة البلوغ، كانت تتميز بلونها الفيراني، نشاطها وذكاؤها لافت، فأضافت حيويتها إلى البيت جوًا من الأُلفة والمرح والإرتياح، تآلف الحيوان مع الانسان بصدق المشاعر الطبيعية، وبالوفاء في السر والعلن، تآلفت ويني مع روزان وجدتها، تنام معهما، وتتمدد بالقرب منهما على الكراسي المخملية..

قبل أيام من افتتاح المؤتمر الاقتصادي، ذهب لطفي إلى المحلة لقضاء يومين مع والدته وابنته، اطمأن على حالة والدته بعد أجواء الحُزن والألم التي أعقبت استشهاد حفيدها، إلا إنه لم يشعر بالارتياح للوعة التي أصابت "ويني"، وازدادت حدتها إلى أعلى درجات الاشتياق العاطفي طوال اليومين معهما، تعاطف بشدة مع ضعف وتوسل ويني على مدار الساعة..

كلما تصاعدت رغبة التزاوج لدى ويني يزداد توتر الاجواء، أجواء من الشفقة والتعاطف مع النداء الطبيعي لهذا المخلوق، لكن كان يصعب إقناع روزان بالتخلي عنها، ويحاول تذكيرها بعدم ارتكاب معصية حرمانها من حقوقها الطبيعية في الامومة، واجتهد لطفي مع ابنته في توضيح المقابل القياسي للحديث النبوي الشريف " دخلت امرأة النار في هرة حبستها ..... "

لكن روزان ترد عليه في انفعال ودهشة :

- يا بابا ويني مش محبوسة، ويني بتأكل وبتشرب، وبقت زي فرد في الأسرة، وبنهتم بنظافتها، وبنحَمْيها كمان باستمرار.
- يا بنتي كل اللي بتقوليه ده كويس، وإن شاء الله ربنا هيكافئك عليه، لكن ويني دلوقتي في حاجة لتلبية غريزة طبيعية، ربنا أوجدها فيها ومتقلش أهمية عن الأكل والشرب..

وخلال حديثهما، تسللت ويني إلى الغرفة، وجلست كعادتها فوق سرير روزان مُمدّدة أماميتيها في انكماش وسكينة، وكأنها كانت تنتظر قرار الافراج عنها للتزاوج، لكن روزان لم تقتنع تمامًا بوجهة نظر لطفي، ولمعت عيناها بالدموع، فسارعت بإبعادهما عن مرمى نظرات والدها بادعاء رغبتها في استذكار دروسها، فيضطر إلى مغادرة غرفة ابنته حاملًا معه ويني..

وعليه كان لطفي يزداد تعاطفًا مع ويني كلما انتابتها الحالة، وقبل سفره للمشاركة في المؤتمر الاقتصادي أجرى بعض الاتصالات مع أصدقاء لعله يجد لديهم ذكرًا من نفس النوع والفصيلة، لكنه لم يَفلح، وعلى مضض وافقت روزان على إطلاق سراح ويني في نادي الشركة، حيث يُمكنها التآلف والتزاوج مع أحدهم من تلك الأعداد التي تعيش داخل النادي، وتحظى بالأمن والأمان والطعام..

وكعادتها معهم، لم تنطلق ويني إلى حال سبيلها فور إخراجها من شنطة تنقلاتها، تسللت وتحسست المكان بحذر وتحفز، مسحت المكان بعينيها قبل أن تتحرك من أسفل الطاولة التي يجلسان حولها، تذهب إلى طاولة أخرى ثم تعود بنفس الحذر والخوف، تُراقبها روزان بعيون حزينة، وبإحساس دفين يتراوح بين الشفقة وعُقدة الذنب، فتلمع العيون بدموع سُرعان ما تسيل على وجنتيها بخيطين متصلين..

وكأن الأرض انشقت فجأة، ليخرج منها قِطْ، له نفس لون ويني الرمادي، لا يختلفان إلا في عدم وجود خصلتين من الشعر الابيض يُزينان خلف أُذني ويني، كيف جاء هذا القط الذكر؟! وكيف ظهر فجأة؟! هل هي حاسة الشم التي تتفوق بها القطط؟ أم الرغبة في التزاوج التي تفصح عنها، أو تُفرزها لغة التفاهم الخاصة، تشتهر بها القطط، وربما تتواجد في سائر كل الحيوانات، فعندما بدأت ويني في مواء رغبة التزاوج الذي اجتاحها مؤخرا، رد عليها هذا القط العفي بما يشبه التحذير، وبنظرة تحد، ووقف في هيئة استعداد للهجوم والانقضاض رافعا قدمه اليمنى الأمامية..

استسلمت ويني، تحركت من أسفل الطاولة، زحفت على بطنها وهي تتجه إلى سور الجاردينيو، وتُصدر مواءً ضعيفا، والقط الذكر يسير بالقرب منها متحفزا ومتعاليا، وأختبأت أسفل أغصان نباتات السور الكثيفة، ووقف ذلك المتحفز على جدار السور يرقبها ويُمني نفسه بتزاوج مع قطة عاشت كالاميرة داخل بيت، وتتفوق بالنظافة والانوثة والحميمية عن مثيلاتها اللائي تؤويهن الشوارع والطرقات..

شاهدا المنظر، وتعجبا لذلك الاستسلام من ويني التي اشتهرت بينهم بشقاوتها وشراستها، ومع نداء الأذان لصلاة الظهر، ذهب لطفي وابنته إلى مسجد النادي، لكنهما ألقيا نظرة أخيرة على ويني، كانت بالفعل نظرة الوداع لمن ألفتهم وألفوها، فبعد عودتهم من الصلاة إلى الجاردينيو مرة أخرى، لم يجدا ويني في مكانها..

- اختفت ويني .. وكمان القِط المُتعالي مش موجود..

تعجب لطفي وهو ينظر إلى ابنته .. لكن روزان لم ترد عليه، وأغرورقت عيناها بالدموع..

*****

عاد لطفي من المؤتمر الاقتصادي، عاد إلى سيرته الأولى، إلى نفس الروتين، إلى نفس الاحساس والانطباع العام، إلى اليأس والحزن والندم مما حدث ويحدث ويضيع ويتهاوى، وكأن عُقدة الغزل في رُقعة القماش المتماسكة قد فكّكتها يدٌ هوّجاء، لا تعي ماذا تفعل، ولا تفهم ماذا تقول، ولم يكن سعيدا بمشاركته ضمن وفد الشركة في فعاليات المؤتمر..

لم يشعر بالارتياح، حتى أن نظرته إلى مجال الدعاية والاعلان قد تغيرت كثيرًا، لم يشعر بذلك التآلف والتجانس مع فريق العمل، غاب الحماس وافتقد الكثير من الكفاءات، افتقد هناء في مثل هذه المؤتمرات والمهرجانات، فلم يعد ينتشي بأي نجاح ولو كان صغيرًا ومطلوبًا، ولم يعد راغبا حتى في الذهاب إلى الشركة مثل الكثيرين، وأصبح يذهب إلى مدينة المحلة أكثر من ذي قبل.

وتزامن ذلك لديه مع تنامي الاحساس بعقدة الذنب، لقد ألقى بالقطة ويني في أتون الصراع الشرس بين قطط النادي، لابد أن لثمن البقاء على قيد الحياة مخاطر، وقد تتشابه هذه المخاطر بين بني البشر وبني الحيوان، وهذا التشابه موجود في حالة الشابة السورية غيداء والملايين من بني جلدتها، كما هو في حالة القطة ويني والملايين من فصيلتها، وفصيلة الكلبة براوني في الشوارع والعشوائيات التي تكتظ بكل أسباب الموت والجريمة، الجميع مُهاجرون، هاربون من ويلات البشر في الحياة، إلى رغبة الحياة في أماكن أُخرى وأفضل..

لقد كان منظر القط الذي انصاعت له ويني أشبه بالبلطجي، أشبه بمسجل خطر من تلك النماذج الذين تقدمهم أفلام السُبكي، اعتاد لطفي أن يذهب كل يوم إلى النادي، يتجول في جنباته وأركانه لعله يرى ويني، يبدأ جولات البحث من نفس المكان الذي اختبأت فيه، لكي تحتمي بالنباتات والزروع من نظرات العيون بينما كان شبيه البلطجي يراقبها ويتأهب للإنقضاض عليها واغتصابها..

- يا ترى راحت فين ويني..

كان يُحدث نفسه، ويزداد لديه الاحساس بعقدة الذنب، فلا أثر لويني، ولا وجود لها بين عشرات القطط التي تتجول في جنبات وأركان النادي، ومنهم ذلك البلطجي وأمثاله من الذكور الخطرين، تهابهم بقية القطط، وتقاوم سطوتهم الامهات وصغار الذكور الذين يدفعهم الصراع المتوارث في هذا المناخ إلى تسلُم راية البلطجة.

تنهَّد تنهِيدةٌ حارة، وعاد لحديث النفس مرة أُخرى :

- لا يختلف الصراع الذي يعيشه بنو البشر الآن عن ذلك المتوارث في الحيوانات.

وفي حضور جدتها الست إحسان داخل المبنى الاجتماعي، يداعب لطفي ابنته، في محاولة للتخفيف من حُزنها على ويني، ويقول:

- اللي مش فاهمه، ليه القطط رغم تميزها بجمال الألوان وجاذبية العيون ، إلا أنها تتصارع، ومعاركها أكثر..

تبتسم روزان لملاحظة والدها، وتُضيف عليها وهي تشير إلى إحداها:

- وأكتر حاجة تخليك تُشفق عليها، هي قدرتها على الادعاء والاقناع، وخصوصًا في منظر المسكين الغلبان، فإذا كنت بتأكل يُقنعك بأنه جعان جداً، ويحسسك به من نظرة عينيه عليك، ومنظره يخليك تتعاطف معاه بأي شكل..

وبعد رشفة من النسكافيه مشروبها المفضل، تلتقط الست إحسان نصيبها في الحديث عن عالم وطبائع القطط، وتقول:

- صحيح القطط من الحيوانات الأليفة، لكن في طبعها الخيانة، وتخربشك حتى لو كانت نايمة في حضنك..

سرح لطفي قليلًا، بينما استمر الحوار بين الجدة وحفيدتها تتخلله الابتسامات والضحكات، أعادته ذكرياته إلى ذلك الاحساس الذي مازال كامنًا في وجدانه، ومع تعبيرات وجهه ابتسم بتلك الابتسامة الخفية وهو يردد لنفسه :

- هناء من أصحاب العيون الملونة، زي ويني لونهما حبهان صافي..

*****

آه .. فين أيام ٢٥ يناير .. وفين ثورة خرجت من أحلام شباب، كان بيحلم بالحرية والكرامة، كان بيحلم بالوظيفة من غير واسطة أو محسوبية .. فين الحلم اللي خلع رأس النظام وأعوانه الكبار .. لكن مخلعش الفساد في الدولة العميقة .. مانتبهناش لحماية الحلم.

تنهيدات حارة ، حارقة بنبراتها الحزينة، خرجت من جوفه .. كان جالسًا في صباح ذلك اليوم على المقهى .. لم يكن ينظر إلى صديقه شريف الذي كان يجلس معه على نفس الطاولة .. لكن كل منهما كان مهمومًا، مستاءً، تستحوذ عليه مشاعر حزينة، تُغذيها بدفعات متتالية آلام دفينة .. لكنهما يتوافقان ويتفقان في أسباب الحالة التي تسيطر عليهما، مثلما تُراود أحوال أعداد كبيرة، وتتنامى مشاعرهم الرافضة يومًا بعد يوم .. تمامًا مثلما تسللت إلى نفسيهما دفعة جديدة، ترامت إلى مسامعهما من تليفزيون المقهى، كان ينقل مراسم إعلان إشارة البدء في التفريعة الجديدة..

تنبه شريف أكثر لتلك اللحظة، التفت بشيء من الدهشة، وإلى صديقه مستنكراً تلك النبرة التي أصبحت من التاريخ، **وقال** :

- هو احنا رجعنا للعهد الملكي ولا إيه ..

ودون أن يلتفت لطفي إلى صديقه رد عليه بنبرة يغلب عليها التهكم ، وقال :

- أكيد طبعا سمعت الخطاب الشهير اللي أعلن فيه عبد الناصر تأميم قناة السويس ..
- طبعا سمعته كتير في الإذاعة والتليفزيون وفاكره كويس لما قال :
- باسم الأمة .. رئيس الجمهورية .. مادة واحد .. تؤمم شركة قناة السويس العالمية ، شركة مساهمة مصرية .....

لم يكن المردود عاليًا، ولم يكن كما كان يحلم الشعب ويروج النظام وأنصاره، كانت التكاليف عالية، ومهدت توابع أعبائها وفواتيرها إلى ما هو أشد قسوة على الشعب، وفتحت الطريق أمام الاقتراض من كل المؤسسات المالية في الداخل والخارج، وامتدت أيدي النظام تطلُب إعانات ومساعدات ومقايضات من دول صديقة وغير صديقة، من مؤسسات وهيئات مانحة وأُخرى مُرابية.. واضطر النظام إلى القرار الاصعب في السوق الحرة.

- المفروض على الحكومة انها ترفع المرتبات إلى الضعف بعد انهيار سعر الجنيه لأقل من نصف قيمته بعد التعويم، لأن كل حاجة ارتفع سعرها للضعف أو لثلاثة أضعاف..

دائمًا ما يُردد خالد هذا الاقتراح في لقاءات الاصدقاء، يتفق معهم في هذا الجانب بالتحديد على الرُغم أنه من المحسوبين على المُعارضين للمُعارضين، زيادة الاسعار كانت شكوى دائمة في أحاديثهم، وفي كل بيوت الفئات المتوسطة والأقل من المتوسط، فما هو الحال مع المُعدمين، والمُهمشين، والاكثر فقرًا..

على أن الحُزن الذي كان يستحوذ على مشاعر شريف لم يكن مبعثه المناخ العام فقط .. لكن كان هناك سبب آخر في دواخله، يضرب بمعاوله في أركان قلبه، فانهار اتزانه وانهارت قواه العاطفية لانهيار تجربته الوحيدة في حياته، انكسر قلبه.. فقد حلاوة الحب وتأثيره على معنوياته، فقد حلاوة تلك الأيام التي ذاق فيها طعم الحب مع عزة، وروت صحراء مشاعره بحنان أحاسيسها، ودفء مشاعرها .. لكن حُبهما لم يصمد طويلاً، لم يكتمل عامه الأول حتى انهار في مفارقة لم يجد لها تفسيرًا، لقد تصادف أنه انهار مع انهيار حكم الإخوان، كلاهما إنهار وتبعه حريق مدمر.. وهكذا فعلت عزة عندما فقدت الأمل في الوصول بعلاقتها به إلى عش الزوجية .

لم يصمد شريف طويلاً أمام حرب شعواء أشعلتها زوجته، لقد استشعرت تغييرًا في إيقاع واجباته الزوجية معها، لم تكن تُلقي بالاً على خروجاته الكثيرة، لم تُحاسبه على تأخير عودته إلى المنزل، كانت هذه التغييرات قد ذهبت أسبابها، ومبرراتها إلى زاوية بعيدة عن تفكير انتصار، فقد اعتادت على مثل هذه الأمور عندما كان منتدبًا في نيابة المنيا ثم أسيوط، كان يغيب عنها أربعة أيام في الأسبوع، ولا يمنحها إلا يومين يقضيانهما معا في نكْد وعراك، ثم يسافر في آخر الأسبوع إلى الإسكندرية لكي يكون بجوار والديه ..

اعتاد هو على هذا الروتين، وأَلِفت هى هذا النظام، فلم تسعى إلى تغييره، ولم تحاول إغواءه بما لديها من انوثة كامنة لكي يرتاد عش الزوجية أكثر، ولم يكن يُراودها إلى نفسه أكثر مما يسمح به روتينهما المعتاد، ولم تكن هي تراوده لكي يكتشف أنوثتها في يوم آخر تصادف قدومه مُبكرًا، أو حتى اصطحبها لزيارة والديه في الإسكندرية..

ووجد شريف راحته في هذا النظام حتى بعد انتهاء انتدابه، وانضم إلى طابور المحظوظين الذين يتطلعون ويسعون للانتقال بعملهم إلى العاصمة..وهيأ له ذلك المناخ لكي يكون ربيعًا لمشاعره مع عزة، استمر ربيعه معها وهْاجًا برومانسيته، وكلما زادت حلاوته معها، زاد ذلك من إهماله لواجباته الزوجية مع انتصار، فلم يعد مدفوعًا بعنفوان عضلاته لإطفاء نار شهوته المعتادة، فكانت كلما توّهجت علاقته بعزة، كانت تزداد خفوتًا مع انتصار وتصبح أقل حميمية لهما على سرير الزوجية، ثم تسلل إليه النسيان وتسلل إليها الشك، واستيقظ إحساس الأنثى بدخول أخرى إلى حياة زوجها، وبدأت التحقق من شكوكها، وسعت إلى تأكيد أحاسيسها .

تربصت بزوجها في كل شيء، تلصصت عليه في عمله، واستخدمت لغة المال لإغراء بعض الموظفين والسُعاة بالبوح بما يعرفونه من أسرار أو حتى شكوك تجاه زوجها، استعانت برباط زمالتها بزملاء زوجها لكي يكون مدخلها معهم في الحديث والمناقشات، على أن أجواء المحسوبية والمجاملات في الترقيات كانت القاسم المشترك في الكلام والنميمة .. لكن أكثر الحالات التي كان لها نصيب الأسد في النميمة ما ارتبط بترقية ابنة النائب العام ، حتى أن انتصار جاملت إحداهن بالقول :

- إن شاء الله تاخدي ترقية سُقع زي زميلتنا أميرة ، وتروحي المحكمة الدستورية .

ابتسمت وسام ناشد زميلة زوجها .. لكن لم ترفع عينيها عن أوراق انهمكت في قراءتها، كانت مساحة الصداقة العائلية بين أسرتي إنتصار ووسام تسمح بشئ من الخصوصية بينهما، كلاهما ابنة رئيس محكمة سابق، ويرتبطان بصداقة قديمة، وتجمعهما لقاءات متفرقة في نادي الصيد بمدينة أكتوبر، ولكل منهما شقيق يعمل أيضًا في السلك القضائي .. لكن كان حظهما أفضل بدخول النيابة العامة ..

ومع ذلك لم تبتهج وسام بأمنية انتصار لها، كان حنينها إلى الزواج يُلح على أُمنياتها قبل الترقية، فقد تجاوزت عقدها الثالث ببضع سنين، وكأنها تذكرت حالها فجأة فرفعت وجهها من فوق الأوراق، وسحبت نظارتها الطبية من فوق عينيها، وبتنهيدة تصاحبها زفرات يأس **قالت وسام :**

- نحمد ربنا على كل حال، وكل حاجة تيجي بأوان وفي الميعاد..والترقية مش هي اللي بتشغلني دلوقتي يا انتصار..ثم أعادت نظارتها إلى عينيها..وعادت إلى الأوراق ..

استشعرت انتصار حالة اليأس التي سيطرت على وسام، وتنبهت إلى قلقها العظيم من الدخول في شبح العنوسة، فاضطرت إلى تشجيعها برفع معنوياتها، لكن لم تغير الموضوع .. وقالت بنبرة وأسلوب أقرّب إلى الأحياء الفقيرة :

- يا أختي هو إنتي نسيتي ولا إيه .. مش أميرة من دفعتنا، واتجوزت السنة اللي فاتت بسْ، وكمان السنة دي اترقت وبقت مستشارة في الدستورية، وأخدت درجة مبيخدهاش غير شيوخ القضاء، يعني بلاش يا وسام تدخلي في اليأس، وكل حاجة بأوان زي ما بتقولي..

التقطت وسام طرف الحديث الذي كانت تود الدخول فيه معها.. وعادت تنظر إلى انتصار، وبادرتها بالقول :

- علشان كده، أنا بَلومك على تدهور جوازك .. إنتي المسئولة عن اللي حصل، وبتتعاملي معاه بندية، وكأنه زميلك في البيت، وده اللي خلاه يبُص لواحدة تانية، ويحس معاها بالحب اللي إنتي معرفتيش تديهوله.."**وبنفس نبرة التعالي**" لكن للأسف أخد الحب من واحدة تانية، واترمى في أحضان واحدة عادية، موظفة تحت إيده، وممكن تكون أقل منك في الجمال .. وكمان هي مطلقة يا سيادة المستشارة **!!**

*****

تحولت انتصار إلى قطة متوحشة، انهالت بمخالب التوبيخ وانتقاداتها الدامية على شريف، تتعمد تشويه صورته لدى أهلها وعند أهله، حاصرت تحركاته في كل مكان، ولاحقته بمكالماتها التليفونية أينما ذهب، لم تعد تتركه وحيدًا في بيتهما كما كانت تفعل من قبل، تذهب إلى أمها التي تسكن بالقرب منهما في حدائق الأهرام، لكنها كانت تتعمد البقاء في بيتهما لكي تستقبله بالخناق إذا تأخر، وتودعه بالتراشقات والشتائم إذا خرج من البيت، قامت بتأليب والديه عليه، واستغاثت بهما للحضور من الإسكندرية، ففوجئ بهما في البيت، ونجحت في نصب محكمة عائلية ضده .. وكان اتهامها له ينحصر في عبارة واحدة تقول :

- إزاي يفضل عليا واحدة موظفة، يعني كده بيعترف إنه ميستاهلنيش، وميستحقش غير الجربوعة اللي بيجري وراها، وكمان طِلْعت مُطلقة، وعندها ولد .. يرضيكم المستوى اللي نزله ذوق إبنكم يا عمي .

انحاز الأب إلى زوجة إبنه ، وانضم إلى موقفها ضده، وكانا كلاهما أحيانًا أو معًا في أغلب الأحوال يعقدان المحاكمات اليومية لشريف، ويصفان ما يفعله بالجريمة التي لا تسامُح فيها، والإثم الذي لا غفران له .. وكان يواجه استفزازات وتهديدات زوجته بأسلوب شعرة معاوية فتارة يقول لها :

- إنتي السبب يا هانم، لو إنك بتقدمي فروض واحتياجات جوزك، مكنش ده حصل، لكن بتنسي إنك زوجة، وبتتعاملي بغطرسة وتعالي، وعُمري ما شوفت منك لحظة حُب أو حنان، وعُمري ما سمعت منك كلمة حلوة، أهملتيني، وبتهملي إبننا، وكل اللي يهمك هو التظاهر والتعالي والتفاخر.

ويتعمد أن يحتوي ابنه في حضنه، بينما تسارع والدته الحاجة زُهرة بأخذ حفيدها، وتبتعد به إلى المطبخ، وتلجأ انتصار إلى استخدام لغة التهديد، وتقول له بنبرة توبيخ على مسمع من حماها :

- طيب يا أخي لو أنا متغطرسة، ومش بقوم بواجباتي ياريت تطلقني "ثم في هيئة تأهُب وهي في مواجهته وقد ارتكزت بيديها على ساقيها" وكل واحد يروح لحاله، وتروح للجربوعة بتاعتك .

لم تكن المرة الأولى التي تُلوّح فيها بطلب الطلاق .. فقد اعتادت على استخدام هذا التهديد كلما نشبت بينهما الخلافات .. وكان شريف يُخاطب عقلها في ردوده عليها .. ويتهكم على سذاجتها .. لكن هذه المرة اضطر إلى استخدام لغة أخرى في ردوده .. وقال وهو يتأهب واقفًا :

- مش هاتتطلقي بسهولة يا حضرة المستشارة .. وكمان ربنا حلل تعدد الزوجات "ثم وهو يهُّب واقفاً ويلوح بإصبعه" مثنى ، وثلاث ، ورُباع .. ولو أصريتي على الطلاق فتعملي حسابك مش هتشوفي ابنك ..

واتجه إلى الباب، وكالعادة يصطحب ابنه..فيلحق به وائل مستجيباً لندائه، ويخرج شريف وابنه كعادتهما كلما اشتد الخلاف .

لم يستطع شريف مقاومة الضغوط العائلية لإنهاء علاقته بمحبوبته.. ولم يجد من يتعاطف معه، ويتفهم مشاعره سوى والدته الحاجة زُهرة، وكانت تلتمس له العذر في مناقشاتها مع والده، وتكفكفه خلال المناقشات، وتهدئ من حدة زوجته، وتتعمد إبعاد حفيدها كلما اشتد الوطيس.

كان شريف يهرب من خلافات زوجته معه إلى بحر مشاعره مع ابنه .. ارتبط به وارتبط الابن بأبيه منذ ولادته، وتصادف أن يولد وائل في نفس يوم فوز منتخب الفراعنة ببطولة كأس أمم إفريقيا بأنجولا .. فاز في النهائي على منتخب غانا .. كانت الكأس الإفريقية الثالثة على التوالي التي يفوز بها الفراعنة ، والسابعة في تاريخهم .. بعدها أصابت عين الحسود الكرة المصرية، فلم تتأهل إلى نهائيات البطولة لثلاث مرات متتالية، ولأن شريف كان زمالكاويًا، ويتعاطف بشدة مع كل من ينتمي إلى الزمالك، ولذلك كان حماسه الكبير لمنتخب الفراعنة ليس بكونه منتخب بلاده فحسب .. بل لأن الذي يقوده فنياً هو نجم الزمالك الأشهر حسن شحاتة.

لذلك عندما أدخل زوجته للمستشفى لمَّا ظهرت عليها مؤشرات ما قبل الولادة، فإن شريف لم يقاوم رغبته في مشاهدة النهائي الإفريقي، وبرر لنفسه تركها مع والدتها التي لحقت بهما إلى المستشفى بأنها لم تدخل في آلام المخاض بعد، ويمكن مشاهدة المباراة خارج المستشفى والعودة قبل أن تدخل في المخاض.

لم تغفر انتصار لزوجها تفضيله مشاهدة المباراة على واجبه الذي يحتم عليه البقاء بجوارها خلال الولادة، واعتادت أن توبخه على هذا الموقف، واعتادت أن تعد عليه الأخطاء، لكن شريف كان يزداد شغفاً بابنه، وكان يرى في مقدمه بمثابة هدية السماء إليه، وتعويضا لصبره على زوجته، ويتفاءل به منذ لحظة قدومه إلى الدنيا، ليس لأن وائل **"وشه حلو"** كما يقولون على المنتخب، بل كان وسيلته للإبتعاد عن أجواء الخلافات والمشاحنات التي اعتادت عليها زوجته، وكلما اشتد وائل عودًا ازداد الأب ارتباطًا به..

وكان شريف يصطحب ابنه معه في بعض لقاءاته مع لطفي، وكلاهما اختص الاخر بزيارات في منزله، لذلك لم يكن وائل غريبًا على لطفي، وفي واحدة من توابع معاركه مع انتصار، اصطحب ابنه معه للمقهى، كانت كركرة أنفاس الشيشة هي الصوت الوحيد المسموع من الجانب المقابل لشريف على إحدى طاولات المقهى، ويكتفى لطفي بدور المستمع فقط لكلام صديقه .. كان شريف حزيناً من أعماقه، يبدو ممزقاً بين إلحاح حبيبته للتعجيل بخطة زواجهما، وبين حرب شعواء أدارت زوجته رحاها عليه، ونجحت في تجييش الأقارب وزملاء العمل عليه، ويقطع لطفي صمته الطويل الذي امتد لأكثر من ساعتين، وقال لصديقه :

- قصة حبك يا عزيزي مع عزة هتفشل بالتلاتة، ونهايتها كمان مش هتكون سعيدة .

أُسقط في يد شريف من كلام صديقه، وفوجئ به على ملامحه وتعبيرات وجهه، واستنكر ما قاله ، **وقال له :**

- ليه بتفوّل بالكلام ده يا أستاذ .
- لأن تجربتك بتشبه تجربتي، وإنت معندكش روح المغامرة وبتحسبها كويس.
- أنا فعلا مش على استعداد إني أهدم بيتي علشان خاطر ابني وائل مايدفعش تمن طلاقي من أُمه..
- عشان كده لازم تدرس الموضوع كويس أوي، وإنت في موقف صعب لأنك لأول مرة تعيش الحب الحقيقي، ولأول مرة تذوق طعم الحب، وفي اعتقادي الشخصي إن الحب ده

نعمة من عند ربنا، ولو أخدناها وتمسكنا بيها هنعيش في سعادة، ولو سبناها وتخليّنا عنها هنعيش بعد كده في كآبة .

- حيرتني يا صاحبي.

"ثم التفت إلى إبنه، وعدل من هيئته بعد أن غلبه النوم" واستأنف كلامه :

- وهي دي فلسفة الإسلام في تحليل تعدد الزوجات، وجعل الطلاق أبغض الحلال عند الله .. لكن الحاصل أن الزوجة دلوقتي بتحول حياة زوجها إلى جحيم إذا اتجوّز عليها، وممكن تتغاضى بعد كده عن خياناته مع أي واحدة .
- لأن الزوجة بتعتبر الزوجة الثانية ضُرتها، اللي بييجي الضرر والعداوة من ناحيتها .. لكن العشيقة هي مجرد نزوة في نظرها، وهتكون ذكرى بتستخدمها الزوجة عند اللزوم، وعند حاجتها لفاصل نكد لجوزها !!

ابتسم شريف بشيء من الاستخفاف، وبنبرة يأس سأل صديقه :

- طيب اعمل إيه .. وتنصحني بإيه من واقع تجربتك .
- غلّب صوت العقل، وماتبقاش ندل مع الإنسانة اللي حبتك، وإنت حبتها بجد .

# ١١

تحت زاوية " **أنا** "

خصصت له مجلة المصور صفحتها الاخيرة .. فماذا كتب فيها :

أنا..

أنا خطوط متضاربة، ومتقاطعة، وأحيانا متوازية!

هذه شقوق محراب الزمن، مرتسمة في كل جهة من وجهي.

وبجانب كل شق نتوء يمثل وثبة سبقتها كبوة، إنها سلسلة معارك حامية مع الزمن..

فأنت ترى في الوجه سكرة النصر، وألم الهزيمة!

ولكنك تلمس أيضا قوة الأمل في أن ينهض الشرق من جديد لوثبة جديدة ومجد جديد.

وإذا جاز لي أن آسف على شيء، فهو أنني لن أعيش لأشهد هذا اليوم الذي أذوق فيه نشوة النصر..

ولكنني حينما أرى الشباب تبرق فيه بعض الآمال ترتاح نفسي..

ففي ذلك بعض الجزاء لما جاهدت في سبيله. وإن كنت أود أن أرى النتيجة أتم وأكمل..

**وأنا هذا، هو الفريق عزيز المصري**، ولد في عام ١٨٨٠ . وكان يشتهر بلقب أبو الثوار، فقد نذر حياته لمكافحة الاستعمار، وكان رئيسا لأركان أول جيش عربي في الحجاز ، ثم وزيرا للدفاع وهو الاب الروحي لتنظيم الضباط الاحرار..

*****

لا يعرف لماذا استعاد فضوله، وتوقف عند هذه الزاوية التي وضعتها صحيفة " الاخبار " في ذيل إحدى صفحاتها الداخلية، كان ذلك في صبيحة العاشر من سبتمبر في نهاية العقد الثاني من الالفية الثالثة. لم يجد لطفي إلا هذه الصفحة التي تستحق القراءة أحيانًا، وكان عنوان الصفحة يدُل عليها ، كنوز، فهى تأتي بمادتها التحريرية من الماضي لكي تنير بها طريق المستقبل للشباب بعيدا عن أكاذيب وبروبوجاندا وسائل التضليل الجارية، وسرح بخياله يستشرف ذلك الأمل في الشباب، لم يسبح في بحر خياله طويلا، تنبه ليعود إلى الواقع، واقع لا يختلف كثيرًا عن عالم الغابة، عالم الحيوان ..

وعندما يأتي الحديث عن الظلم والفساد والكذب والنفاق وكافة ما نَهى الله عنه، هل تجوز المقارنة بين الانسان والحيوان؟!ولمن عرض الله الامانة؟ طبعًا لا تجوز..

ومع ذلك..

هل يتشابه عالم القطط مع عالم البني آدميين؟! وهل يوجد تقارب أو توافق في الصفات والطبائع بين هؤلاء وهؤلاء؟!

هكذا .. كان يتساءل مع نفسه في ذلك الصباح، حيث كان جالسًا في شُرفة غرفته بمنزل العائلة في مدينة المحلة، لم تكن لديه رغبة في التجاوب مع شيء مما يدور حوله، لم يكن راغبًا حتى في تناول طعام الافطار الذي أتت به ابنته إلى غرفته، أو حتى في النظر إلى الشارع أو الذهاب إلى محل المانيفاتورة الذي ورثه عن جده..

كلما وقع حادث إرهابيٌ زادت كآبته، وكلما تغول المتربصون للحلم العربي، يستبد به اليأس والحزن والألم، لماذا تحول حلم التغيير للديمقراطية والحياة الكريمة إلى كابوس، كابوس تُعاني منه الشعوب العربية، انتشرت التنظيمات الارهابية، ظهرت تحت مسميات مختلفة، لم تفوت الانظمة الفرصة، وجدت فيها ما يؤيد اجراءات التمكين والترهيب لتثبيت أركانها، وما بين ذلك وتلك ينتعش التلاعب بمصير شعوب منكوبة.

- ليس في عالم القطط، ولا في عالم الحيوان عموما ما يحدث بين البني آدم، وتحديدًا في البلاد العربية، هي ساحات قتل وتدمير وانتهاك، انتهاك لحقوق الإنسان، انتهاك لحرمات الله..

وهذا ما حذرنا منه الرسول الكريم ﷺ، وما نبهنا إليه كثيرًا نبيُ الرحمه، وشدد عليه وعلى الوقوع فيه في خُطبة الوداع.. كان يُحدث نفسه، ويُردد ما يختلج في صدره بصوت لم تتبينه بوضوع أُذني روزان لحظة دخولها، وجدته يُحاول كبح رغبة مشاعره في البُكاء، لكن لم يستطع كبح انفلات الدموع التي اغرورقت بها عيناه، أشفقت عليه، اختلجت مشاعرها لرؤيتها دموع الاب لأول مرة، لمعت عيناها بالدموع، جلست بجواره، ضمته بحنان جارف، وبصوت تملؤه حشرجة حزينة، قالت :

- سلامتك يا بابا، إيه اللي عامله في نفسك ده، أرجوك اشركني معاك، ألمك بيعذبني، أرجوك متخبيش عليا حاجة..
- مفيش حاجة يا بنتي، أنا بس افتكرت حاجة فاتت من زمان..
- لا يا بابا إنت دايمًا حزين، وأنا ملاحظة عليك إنك حزين ومُكتئب من شهور فاتت..
- لا يا حبيبتي أنا بس افتكرت الغالية، مامتك أنوار، مش قادر أنساها، وبقيت أفتكرها كتير في الايام اللي فاتت..

صمتت للحظات، لمعت عيناها، تشجعت ورفعت رأسها، نظرت بإمعان إلى والدها، وبإصرارٍ **قالت له :**

- بصراحة كده يا بابا إنت محتاج تتجوز، وماما هتستريح أكتر لما تتجوز، وأنا كمان هكون مبسوطة لراحتك..
- لا يا حبيبتي أنا كده مرتاح، المهم إنك تكوني سعيدة إنتي وجِدْتِك، ومفيش حاجة بتشغلني غيرك إنتي وجِدْتِك..
- احنا مبسوطين يا بابا، ومش ناقصنا حاجة غير إننا نشوفك سعيد..

انتعش لطفي، وجدد كلام ابنته الأمل في إحياء مشاعر قد انزوت، هل يمكن أن يكون الزواج هو الحل والمخرج لما هو فيه، تجربته التي دخل فيها بالعقل فأتت ثمارها بإبنته روزان، ولم تكتمل، أتاها المصير المحتوم الذي لا راد لقضائه فخطفها بلا رجعه، أما تجربته التي عاشها بالقلب وبأجمل المشاعر وأحلاها وأكثرها نشوة، لم تكتمل أيضًا، صحيح أنه لم يعرف الحب قبل هناء، ولم يطرق بابه بعدها، لكنه لم يكتمل بزواج تأخر ثم تأجل، ثم أنهكته الخلافات حتى خرج من حساباتهما، وخرجا معًا نادمين من جنة حبهما..

تساؤلات تتوالى وتُلح على تفكيره، هل يمكن أن يكون اقتراح ابنته حبل إنقاذ، ينتشله من حالة الكآبة التي تستحوذ عليه كثيرًا، يُخرجه من هوة سقط فيها ومعه آخرون من أقارب، وأصدقاء، وزملاء في العمل، وفي الشارع، وتبدو عليهم جميعا ملامح من يأس وإحباط وهزيمة، وعلى المقاهي التي عادت تُلملم الشباب وتحتضن المكسورين، المكسورون ليس في مصر وحدها، لكن أيضا في ليبيا، وفي سوريا، وفي اليمن، وفي عراق غريق في الطائفية، وفي سودان لم يبرأ من جُرح الانفصال..

كان لهذه الشعوب حُلمٌ ولد وعُرف بالربيع العربي، لكن الايدي الآثمة اغتالته، ووأدت انطلاقته الخضراء مثلما عصفت بحلم إقامة الدولة الفلسطينية منذ عشرات السنين، وبعشرات الاتفاقيات والوعود والتعهدات تدور جميعها بالفلسطينيين في حلقات مُفرّغة مثلما يلُف الثور وهو معصوب العينين حول الساقية، ولا يصل إلى ضوء في نهاية نفق وعد به الامريكان، سقط في وهّمه العرب جميعا، تحولوا إلى دُمى تتلاعب بها الادارات الامريكية المتعاقبة، ووصلوا إلى هوة الانصياع في عهد إدارة دونالد ترامب، فتناسوا وانصاعوا وهرولوا إلى التطبيع وإبرام اتفاقيات سلام مُنفرد، سلام مجاني مع كيان اغتصب ونهب وأجرم وقتل..

لقد حوّلت الأيدي الآثمة أحلام العرب إلى كوابيس، استبدلت نخوة المقاومة بتهمة الارهاب، ثُهمة سيطرت على لغة الخطاب، ونعتت الثورات بأوصاف العمالة وتآمُر قادم من الخارج، وبدلت الأسم بكلمات وكسة، نكسة، وطاردت الشباب وكل من يرتفع بداخله صوت الحرية بالاتهامات، وألقت بهم داخل السجون، وأغلقت عليهم أبواب المعتقلات بنفس الاسباب وبنفس الاتهامات، سُبحان الله..كمن يبحث عن السموم دوّاءً لسموم أخرى استقاها من نفس الاعداء..

- أنا إتجوزت يا أستاذ لطفي..

هكذا .. رد خالد على مُكالمة لطفي، وفاجأه بخبر زواجه من كوثر، تمسكت به كوثر رغم معارضة والدتها وشقيقيها.. تظاهر بأنه فوجيء بالخبر، وقد كان يعلم بما أقدم عليه خالد، فقد تردد خبر زواجه، وانتشر بين المقربين حتى وصلت المعلومة إليه عن طريق صديقهما الطبيب الشاب أكرم، فاجأ لطفي وشريف بسؤال مباغت فور وصوله إلى المقهى بعد انتهاء عمله :

- عارفين مين اللي زارنا النهاردة في العيادة ؟
- هيكون مين يعني، أوعى تقولي حد من المشاهير " ثم وهو يضحك بشيء من التهكُم " في عيادة الغلابة بتاعتكم، ولا يمكن " ثم بإبتسامة أخرى ذات مغزى " تكون غيداء عايزة تستعجل زيارتك لجوزها..

هكذا .. رد عليه شريف بينما كان يبدو على لطفي عدم الاكتراث..

- للأسف .. حد تاني مش ممكن ييجي على بالكم خالص..

تنبه لطفي، واستعاد اهتمامه، وتوجه إليه بكل تركيزه، وسأله بلهفة :

- مين، قول بسرعة مين، شوقتنا يا أكرم..
- الأستاذ خالد، وماكنش لوحده... كانت معاه مراته الجديدة الكابتن كوثر..
- بتقول إيه .. هو اتجوزها خلاص..

ردا الاثنان في صوت واحد، وبدت الدهشة على ملامح شريف.

- أيوة .. وواضح أن الجواز من أشهر فاتت، لأنه جابها للكشف عليها من آلام في البطن، مصحوب بقيء وارتفاع في درجة الحرارة، ودي أعراض حمّل تتضح بالتحاليل....

وقبل أن يستكمل أكرم كلامه حول الأعراض الطبية، نظر الصديقان إلى بعضهما في تعجب ودهشة، **وقالا في صوت واحد:**

- شوف الندل، مخبي علينا خبر الجواز، مع إننا كنا قلقانين عليه..

أراد أن يتأكد رغم محاولات خالد بعدم الافصاح عنه، واضطر إلى ذلك بعد عدة اتصالات قطعت حالة القطيعة التي تعمدها خالد، ابتعد عن لقاءات صديقيه لأكثر من ثلاثة أشهر، كانت قد سبقتها بوادر خلاف تسللت إلى صداقته مع شريف، وعليه كان يتعمد التهرب من تساؤلات لطفي، وقال:

- لما نتقابل هحكيلك بالتفصيل بعد ما أرجع، أنا في اسكندرية..

لم يتصل خالد بعد عودته من اسكندرية، ولم يُبد اهتمامًا بذلك، بل تجاوز بوعده عدة أسابيع أُخرى حتى فقدوا الأمل في عودة صديقهم إلى لقاءاتهم على المقهى، ومنذ عام تقريبًا، ولرغبتهم في إحداث شيء من التغيير على روتينهم المعتاد، كان الاصدقاء يلتقون على مقهيين بالتناوب.. المحروسة ودعاء الكروان.. كلاهما في مربع تقاطع ترعة المريوطية مع شارع الملك فيصل، ويفصل بينهما عدة أمتار، ويقع بينهما وبعدهما وفي الجانب المقابل العديد من المقاهي الأخرى، تتراص على امتداد الشوارع الرئيسية والجانبية..

لنشاط المقاهي رواج يزداد في ظاهرة لافتة في ربوع القرى والمدن، تحمل أسماء وألقاب تفنن أصحابها في اختيارها، لم تكن الاختيارات دليلا على ثقافة وهيئة أصحاب المقاهي، وشواهد معظمهم توحي بأنهم لا يعرفون المدلول الخفي للأسماء التي أطلقوها على مقهاهم، فعلى ماذا ينسحب اسم دعاء الكروان في الادب العربي، ولماذا اختاره عميده ودُرته طه حسين لواحدة من أشهر رواياته، وربما يُفاجأون إلى رمزية اسم المحروسة الذي يشير إلى أشهر يخت في تاريخ مصر الملكية، وقد كان مخصصا لنزهات ورحلات الملك فاروق، وبه غادر الملك للمرة الأخيرة مُتجها إلى إيطاليا لتدخل مصر في عهد جديد تحت مُسمى الجمهورية..

فوجيء باتصال مُبكِّر، لكن لم يتمكن من الرد، لكن عادت به الذكريات إلى تلك المكالمات الصباحية من هناء، كان لطفي مازال ممددًا في سريره بشقته في حدائق الآهرام، يأنس كثيرًا بأوقاته في هذه الشقة، ويشعر فيها بالإرتياح، ربما لموقعها الذي يطل مباشرة على منظر الآهرامات الخالد، ويتراءى إلى ناظريه فندق ميناهاوس العريق، لكن الأرجح في خصوصية هذه الشقة إلى نفسه أنها مازالت تحتضن في أركانها ذكرياته مع هناء، لم ينس حُبه في تلك الأيام الخوالي، صحيح أنه انزوى في رُكن بعيد داخل قلبه، لكنه مازال كامنًا وحاضرا تستدعيه الذكريات، ومن آن لآخر يتذكرها، ويأسف على ما فات، كان ذلك الصباح واحدًا من تلك الاستدعاءات، حتى أوقفتها رنات جديدة من التليفون :

- صباح الخير يا سعادة البيه..

حاول أن يتبين صاحب الصوت على الطرف الآخر، لم يسترد وعيه بالكامل، كان مازال في أجواء النوم، ومازال هائمًا في نشوة ذكرياته، فسأل بتثاؤب :

- مين بيتكلم، مين معايا..
- يا راجل معرفتش صوتي، خلاص نسيتني..
- آه، أهلاً يا خالد، أهلاً يا عريس، إيه اللي فكّرك بيا وفي الساعة دي..
- إنت لسة نايم، قوم يا عم الساعة بقت تمانية وربع، قوم أنا حاصلي حادثة من كام يوم، وأنت مسألتش عليا..
- خير، إيه اللي حصلك؟
- واحد هجّم عليّ، رمى عليّ محلول زي مية النار، وحصلّي حروق وتشوهات في رقبتي وصدري وضهري، وهرب في عربية كانت منتظراه في الناحية التانية من الشارع، وكان فيها اتنين منتظرينه..
- والكلام ده حصل إمته وفين؟
- من حوالي عشرة أيام، في نهاية شارع اللبّيني بالقرب من مطلع الطريق الدائري المتجه لكورنيش المعادي..
- وإيه اللي ودّاك هناك أصلًا..
- كُنت منتظر مراتي، لأنها كانت في زيارة لأمها..

لم يُجهد خالد تفكيره كثيرًا في معرفة المستفيد من وراء تهديده وترهيبه جهارًا نهارًا، كانت الواقعة في عصر يوم جمعة، وفاجأه المُهاجم من الخلف وهو جالس داخل سيارته، وهو ما جعل المحلول لا يصل إلى وجهه، وأشارت أصابع إتهاماته إلى بعض جيران أُسرته في الفيوم، لهم أرض مُجاورة لقطعة أرض ورثها هو وإخوته من والده، مساحتها نصف فدان، وكانت كل ما يملك وما استطاع توفيره لهم، وتكمن قيمتها في موقعها الذي دخل في كردون المباني، فتضاعف سعرها إلى عشرات المرات..

استطاع الجيران اقناع شقيقتي خالد بالبيع، وأجبرتهما الحاجة إلى المال على الموافقة، على الرغم من أن السعر المتفق عليه كان أقل كثيرًا من قيمة الأرض السوقية، لكن الصفقة تعثرت بسبب رفض خالد لبيع نصيبه، واستغل الطامعون في الأرض إقامة خالد في الجيزة، وسفر شقيقيه الآخرين للعمل في الخليج ودأبوا على عمل تعديات على الأرض، ووصل إصرارهم في الاستيلاء على الأرض إلى قيامهم بحرثها وزراعتها بالتزامن مع أرضهم الملاصقة..

اعتاد خالد في زياراته الدورية لوالدته وشقيقتيه أن يتوجه إلى قسم الشرطة للإبلاغ ضد هذه التعديات، واعتاد على تجديد المحضر كل زيارة، وكل ما يفعله قسم الشرطة هو تكليف أحد أُمناء الشرطة لعمل الإجراءات اللازمة نحو استكمال المحضر بسماع أقوال المتهمين، إلا أن الأمين لم يكن أمينًا في تأدية مهامه، يذهب إليهم لتحذيرهم، ويطالبهم بسرعة شراء الارض حتى لا يضطر إلى تحريك المحضر إلى النيابة، يتكرر هذا الاجراء على مدار عامين، وفي كل مرة يقبض المعلوم ويعود أدراجه إلى القسم..

وعلى الرُغم من أن الجيران قد ضاقوا ذرعًا من إصرار خالد على عدم البيع لهم، إلا أن أحدهم يُلقي على مسامعه بكلمات تجمع بين الثقة والاستفزاز، ويقول له وهو جالس تحت ظل شجرة الكافور على رأس الارض:

- ما تتعبش نفسك يا خالد بيه، هنشتري منك الارض، وبموافقتك كمان..

يرد خالد وقد تملُّكه الاستفزاز والغضب:

- حتى لو كنتوا آخر ناس في الدنيا، مش هبيعلكم، وبكرة نشوف..

# ١٢

دخل أكرم

خرج شريف

استقر خالد، وعاد لطفي..

أجواءٌ مُلبدة بالغيوم، رياحٌ عاتية تعصف بكل شيء تقابله، تقتلع الأشجار، تُدمر بيوتًا واهية لا تقف على قواعد ولا تشتد بأعمدة، تنهار في أنهار من الأكاذيب ووعود الباطل ودعوات التغيير بالتطبيع، ليُصبح الاخ عدوًا والعدو حليفًا، تتحقق نبوءة هرتزل، يحصد الصهاينة الجدد ما خطط له روتشليد وويزمان، وما ارتكبه الارهابيون الاوائل بن جوريون، جولدا مائير، بيجن، شامير، بيريز، رابين، شارون، إيهود باراك، ويصبح نيتانياهو وكل حاكم جديد "لأولاد العم" يسيطر ويتغطرس، والفضل يعود لتوابع تخريب الربيع العربي..

إنه مفترق طُرق في تساؤلات مازالت حاضرة..

هل هرولة التطبيع يعود لتوابع ذلك التخريب، أم أنه يعود لتوابع مؤامرة غربية حرُّكت الاحداث من وراء الستار، وكانت تهدف إلى تخريب أوطان وجيوش العرب!!

رحب الكيان الصهيوني بما لم يكن يحلم به في هرولة التطبيع، ومع ذلك لم يوقف جرائمه واعتداءاته على المقدسات وعلى الفلسطينيين، أمعن في التهويد ومصادرة أراضي وبيوت العرب في فلسطين، ومنحها لمستوطنين قادمين إلى أرض لم يألفوها ولم يولدوا فيها..

لم تتوقف الاعتداءات، ولم تهدأ جرائم الصهاينة حتى في عنفوان هجمة جانحة وباء كورونا، وباء حصد مئات الملايين في عالم اعتاد على الكيل بمكيالين..

هل كان الوباء عقابٌ إلهي؟!

لم يستيئِس الفلسطينيون، لم يستسلموا، لم يقعوا ضحية مكر وخداع الوكيل الجديد لخدمة كيان زرعه الاستعمار، وكيل يُقيم في أرض وبيوت العرب، يرتدي الرداء العربي التقليدي، ويُزين رأسه بغُترة وعقال.

*****

لم يُخف أكرم عن لطفي أي جديد من مشاعره المُلتهبة، أخذ مشورته عندما بدأ قلبه ينبض تجاه غيداء، يردد اسمها في وحدته، يتخيلها وهو موجودً بين أصدقائه، وكلما أطربته أغنية للعندليب، أو قرأ شعرا لنزار، أو مارس هوايته بالجري فوق سطور واحدة من روايات إحسان.

لم ينقطع عن برنامج زياراته لمتابعة حالة زوجها المريض بالضغط والسكري، يحرص على الذهاب بهيئته الطبية حاملًا حقيبته، بها أدواته، وخصوصا جهازي قياس الضغط وقياس مستوى السكر، يدخل العمارة مرتديا البالطو الأبيض حتى لا يُثير أي احتمال للريبة والشكوك..

وعلى الرُغم من أن المكالمات بينهما قد أصبحت يومية، إلا أنه لم يجرؤ على الاعتراف لها بحبه، ولم تُجازف هي بتشجيعه على البوّح بما تراه وتشعر به، كانت أكثر منه شغفًا وإقبالاً، لم يكن تواقًا إلى المجازفة بالكلمات التي تلتهب في وجدانه، ولم تتخل هي عن الحذر والحرص بعبارات تستطيع إخراجها بوسائل أُخرى، كانت ترى هواه وهيامه بها في العيون والأنفاس والإيماءات، تلمس الحرص عليها في اهتمامه وردود أفعاله، يستشعر تلك اللغة الصامته التي ترويها عيون ارتياحها بقدومه وبوجوده في حياتها، يُكبر فيها وفاؤها لزوجها الطاعن في السر وفي العلن..

كان كل منهما يشعر بالامتنان للظروف التي وضعتهما في طريق واحد، ظروف ليس لإرادتهما دخل فيها، وليس لمرض زوجها مُبررها الأول، لكن أقواها تلك الحرب الأهلية التي شردتها وشردت ملايين السوريين، وحملتها إلى مأواها الذي تعيشه بقناعة ورضا نفس كاملين، لم تتمرد عليه ولم تخُنه بالغيب حتى لو كانت وسائلها مُتاحة وأدواتها حاضرة، ظلت على الوفاء والعهد، وظلت صحراء في طبيعتها التي مازالت بكْرًا، وهيئتها التي مازالت عطشى للماء، فلم تترّبُ ولم تهتز بأسباب الحياة، ولم يتغير لونها، بل يزداد بريقُها لمعانا في ضوء النهار ويخفُت عندما يحل الظلام وينزوي والناس نيام..

النساء هي جبال البيوت في صلابتها وأوتادها وركائزها وإرادتها، هي صحراء البشر بنعيمها وخيراتها وأسرارها، وتبدو حاجة الأنثى للرجل مثل حاجة الصحراء إلى الماء، لا تُشبعها قطرات من أمطار موسمية في أيام معدودات، وكلما انهمرت عليها المياه وتواصلت، تغير لون رمالها تدريجيا، وزادت خصوبتها، وباحت بأسرارها من نباتات وزروع وأشجار، وتتحول إلى جنّاتٍ خضراء تبعث بكل أسباب الحياة، وتبوح بكل أسرار الجمال الكامن في دواخلها..

لم تتغير غيداء في طبيعتها، ولم تحد عن ما ألزمت نفسها به طوال سنوات ارتباطها بزوجها، ولم يندفع أكرم في الافراج عما يجيش في صدره، ولم يكشف عما يستحوذ على تفكيره علانية، كان يكفيهما أنهما يعلمان، ويعيشان نفس الشيء، نفس المشاعر، نفس الحب النقي الطاهر الذي ينمو يوما بعد يوم،ويزداد في تقاربهما اللإرادي، ويتواصل في عالمهما الإفتراضي، حتى جاء ذلك اليوم :

- إلحقني يا أكرم، أنا في مشكلة كبيرة بِذْي إياك، ما تتأخر عليّ، الله يرضى عنك..

جاءه صوتها باكيا مُنزعجًا عبرالتليفون، أيقظه اتصالها في صباح باكر ليومٍ مُمْطرٍ من أيام شتاء قارس، لم يتساءل أكرم عن السبب، ولم يستفسر عن نوع المشكلة، كان كل اهتمامه هو اللحاق بها وعدم التأخير عليها، هرول إليها بأقصى ما يستطيعه من سُرعة، ألقى بنفسه في أول تاكسي صادفه مارًا أسفل المنزل الذي يسكن فيه بشارع ترسا، استغرق وصوله إليها أقل من نصف ساعة، استأنف خلالها اتصاله بها لكي يستوضح الأمر، ويستجمع قواه وتفكيره، ويؤهب نفسه على الخطوة التالية..

فوجئت غيداء بزوجها مُلقى في أرضية الحمام، لم تَدرِ كم من الوقت مر على سقوطه، لكنها تذكرت أنها سمعت صوت ارتطام لم ينتشلها من ثُبات النوم إلى اليقظة الكاملة، لكنها تمّلمّلت قليلًا في فراشها على كنبة بجوار سرير غُرفة النوم الذي اعتاد أن ينام عليه زوجها بمفرده منذ سنوات، توقعت أن تكون قِطتها " حسناء " قد أسقطت شيئًا في المطبخ أو الحمام بحثًا عن شيءٍ تأكله أو ماءٍ تشربه، وهذا ما يحدث أحيانًا وما يدفعها إلى مداعبة قطتها، واعتادت أن تحملها وتُهدهدها بكلتا يديها، وكأنها تحمل مولودها، وتضمها إلى صدرها، وتُمطرها بالقبلات، وهي تُحادثها :

- يا حبيبي، بطل شقاوة يا حبيبي..

كانت "حسناء" هي مصدر التسلية والعزاء الوحيد لغيداء بين جدران الشقة طوال اليوم، تُلاحقها في أي رُكن أو غُرفة، وتجلس في هدوء وسكينة بجوارها وهي تشاهد التلفزيون، وتنام عند قدميها على الكنبة، واعتادت أن تُداعب سيدتها بقدميها الأماميتين في وجهها لكي توقظها مع إشراقة كل صباح، فتقدم لها ملعقتين من طعامها الجاف الذي تشتريه لها أسبوعيا في عبوات..

في ذلك اليوم استيقظت غيداء على مُداعبات حسناء، كانت تُصدر مواءً غريبًا وغير طبيعي قبل موعد كل صباح، لم يتوقف مواؤها على الرغم من أن غيداء نهرتها، لكنها عندما التفتت إلى حيث يرقُد زوجها لم يكن موجودا، فاعتقدت أنه كالعادة قد تحامل على نفسه وذهب إلى الحمام، وهو الأمر الذي يتكرر معه مرات عديدة على مدار الليل والنهار بسبب مُضاعفات مرض السكري، لكن حسناء كانت تنظر إليها وتتجه بموائها إلى حمام الشقة، فتبعتها غيداء وأطلقت صرخة مدوية..

كان باب الحمام مواربًا وزوجها مُمَددًا على جانبه الأيمن بلا حراك، لاحظت إعوجاج فكيه وتصلُّب جانب وجهه الأيمن، وأجاب على تساؤلاتها بأصوات متقطعة وبكلام غير مفهوم، حاولت أن تساعده للوقوف على قدميه فلم تستطع، ولم يستطع هو سوى تحريك ذراعه اليسرى قليلًا، فلفته بذراعيها من خلفه وحول صدره، استجمعت قواها وسحبته تدريجيًا خارج الحمام إلى صالة الشقة، وعلى الرغم من أن الرجل كان أشبه بهيكل عظمي يكسوه الجلد لما فقده من وزن في سنوات مرضه، إلا أنه كان ثقيلًا عليها وأتعبها كثيرًا، وهي تُجرُّجِره بخطوة تلو الأُخرى، حتى انهارت قواها وتقطعت أنفاسها، لكنها تحاملت لكي تتصل بأكرم وسارعت بارتداء إحدى عباءاتها قبل مجيئه..

رجَّح أكرم أن الرجل قد أصابته جلطة دماغية، أدت إلى نزيف في المخ، لذلك استبقى سائق التاكسي لكي يُسعِفهُما بتوصيل الحالة إلى استقبال مستشفى الهرم، كان عليه أن يُسابق الزمن حتى لا يتجاوز فترة الحادث المتعارف عليها طبيا بأربع ساعات الأولى، حيث يمكن إنقاذ المريض من توابع الجلطات الدماغية التي قد تؤدي إلى الشلل الكامل أو الوفاة..

مع نوبتجية استقبال المستشفى، كان أكرم محظوظًا بوجود زميله ياسين، كان طبيبًا شابًا من نفس الدُفعة، أنهى الاجراءات الأولية اللازمة التي تحتاجها الحالة بتوصيله بجهاز التنفس لحين نقله إلى غُرفة العناية بقسم المخ والأعصاب، لكن الحظ لم يُلازمهما بالحصول على سرير فارغ بقسم العناية.

هذا الوضع من الأمور التي يعتاد عليها الاطباء في المستشفيات، مما يضطرهم إلى تطبيق نظام مستشفيات الحروب، ويقضي بإحلال الحالات العاجلة محل الحالات الميؤس منها أو من شفائها، وهو ما يعني قرار غير مُباشر بإنهاء روح مازالت تنبض بالحياة، هو من أصعب القرارات التي تؤرق ضمير الاطباء، وقد يكون مُتخذ القرار سعيدا بواحدة من حالات الخروج من الرعاية، سواء كانت بالشفاء أو بتحسن الحالة مما يستدعي عدم الحاجة إلى استمرارها في العناية الفائقة، أو بالوفاة..

قائمة الحالات في قسم الاستقبال تزداد يومًا بعد يوم، جميعها تنتظر الدور لدخول قسم الرعاية الفائقة..

كانت الرابعة عصر ذلك اليوم عندما دخل زوج غيداء قسم رعاية المخ والاعصاب..

*****

استسلم شريف، انتصرت انتصار في معركتها لإفشال علاقته بعزة، لم يرُد على مكالماتها، ولم يتجاوب مع تعليقاتها ورسائلها إليه في صفحات التواصل الاجتماعي، طار في رحلة عُمرة إلى بيت الله الحرام، لم يكن هدفه الحقيقي أداء الفريضة، كان يسعى إلى نسيانها، وإلى التكفير عن ذنبه في أجواء الرحاب الطاهرة..

صدمتها كانت قاسية، قاسية في كبريائها، في أحلامها وأمام أمها، أيقنت بأدوات الأنثى أن فرصتها في الانتقام مازالت في يدها، وأنها مازالت تعيش في وجدانه، وعليها إخراجه من حياتها بإرادتها وليس بإرادته، تعرف الأُنثى أن قوتها في أدواتها المخفية، تكمن قوتها في ضعفها ودموعها وصبرها وإرادتها، تستدعيها عند الحاجة، وتُشهرها عندما تتعرض لطعنة أو تنهار ثقتها فيمن منحته أعز ما تملك، وفيمن تنازلت له عن تاج كبريائها، وبريق هيبتها ومصدر فخرها، فخارت قواها، واهتز تماسُكها، وسالت دموعها خلال فضفضتها لزميلتها وصديقتها سعاد :

- إدُّتلُه اللي ما يستحقوش، لكن الواطي رَمَاني رَمّية الكلاب..

ارتبطت عزة وسعاد بصداقة قوية منذ التحاقها بالهيئة القضائية، سبقتها سعاد بعام في التدريب، وسبقتها بالتعيين في الهيئة، لكن كانا يتفقان في العلاقة الخاصة التي ربطت كل منهما بأحد وكلاء النيابة، كل منهما كانت تعرف أسرار العلاقة الخاصة لصديقتها، يتشاركان في تفاصيلها، يتشاوران في أحداثها، وتفاءلت عزة أكثر في مستقبل علاقتها مع شريف، وزاد إقبالُها عليه بنجاح صديقتها في الوصول بعلاقتها إلى عش الزوجية..

عاد شريف من الأراضي الحجازية ليواجه معركة طاحنة، معركة تكاتفت فيها الغريمتان، وكادت توابعها أن تُحِيله إلى عدم صلاحية، وأن تسحب منه صفة العدالة التي حَرَمَ منها عزة، ارتكاب الظُلم يسهُل مع النفس الأمّارة بالسوء، وتحقيق العدالة يسهُل بترك الشهوات، ولم

يكن شريف بهذا السوء في طبيعته البدائية، لكن تغلبت شهوة الانتقام لدى زوجته عليه، وواجهته حبيبته عزة بشهوة انتقام أُخرى..

فوجيء بمذكرة ضده في إدارة المنطقة، اتهمته عزة بالتحرش وإساءة معاملتها والتربص بها، استشهدت بصديقتها سعاد، وبالساعي عم جعفر، ثلاث تُهم اربكته وأفقدته توازنه، شاعت أصداء الاتهامات في المنطقة وفروعها، ترددت في أحاديث وحكايات الألسنة التي انقسمت إلى فريقين، لكل طرف فريق يؤيده ويتعاطف معه، وحتى شهادة سعاد وعم جعفر فتحتا الباب لتأويلات ومبررات كل فريق..

قالت سعاد :

- كان اهتمامه بها غيرعادي، يواعدها ويُقدم لها الهدايا، ينفرد بها في مكتبه بحجة إنهاء تحقيقاته التي أجراها، ويتمسك بها وبوجودها معه على مدار عام كامل..

وقال عم جعفر:

- كان يُعاملها ويُعاملني بعطف وحنان، إداها الثقة ويحكي لها خصوصياته وأسراره، كنت أنا شخصيا أعرف عنه الكثير، وكنا بنفطر مع بعض سندوتشات فول وطعمية كل صُبح، لكن معرفش أنه كان بيواعدها خارج العمل..

استجاب مدير المنطقة لطلب ونصيحة مدير الفرع، وأوقف تصعيد الواقعة إلى التفتيش القضائي للتحقيق، اكتفى بالاجراء الداخلي لإدارة الفرع الذي وازن بين مذكرة الرد التي قدمها شريف، ووافق

على طلب عزة بالنقل إلى فرع آخر، ووافق على رغبة زوجته الثانية سعاد، ورفع مذكرة أخرى لرئاسة الهيئة يوصي بتثبيتها في وظيفة سكرتيرنيابة..

لكن عزة لم تهدأ، ولم تهنأ، وسعت إلى وسائل أُخرى للانتقام من شريف..

*****

تذوق خالد طعم السعادة بزواجه الثاني، وكأنه يعيش بين جنتين في رحاب زوجتيه، كلتاهما تحاول إرضاءه بأي وسيلة. استقبلت رضا زواج زوجها بكل هدوء، أخفت حُزنهَا وآلامها من وجهها وعن عينيه، واقنعت ولديها بأن ذلك من حقوقه الشرعية، ومن احتياجاته الوقائية من شر الذنوب والمعاصي، واخذتهُما معها يحملون الهدايا الرقيقة في زيارة تهنئة للعروسين بعد عودتهما من رحلة العسل، رحلة هي المُقابل التقليدي لعادة متوارثة في أيام الزواج الأولى، يطلقون عليها شهر العسل..

اختار خالد وكوثر أن يقضيا شهر العسل في شرم الشيخ، لكن كوثر لم تشعر بالارتياح من اختياره النزول في فندق القرية الاوليمبية التابعة لوزارته، كانت تُمني نفسها بأن تكون أيام العسل في أحد فنادق خليج نعمة، أو أن يُفاجئها بترتيبه في إحدى القرى السياحية التي تتميز بخصوصية شواطئها، بل أنها لم تكن تُمانع بالإقامة في أحد فنادق أو قرى هضبة أم السّيد، أو حتى إحدى استراحات نادي الرياضات البحرية التي سبق لها النزول فيها خلال بطولات ومؤتمرات تستضيفها شرم الشيخ..

تغيرت رضا كثيرًا في هيئتها وبعض طبائعها، واستطاعت أن تحتفظ لها بنصيب في أعباء واهتمامات زوجها من أجل ولديها.

ولم تتغير طبائع خالد في استغلال المواقف، وفي انتهاز كل فرصة تفتح له طريق المكاسب والترقي في سلم الترقيات بالوزارة. استقر في هذا الطريق، لم يختر سواه بعد أن زادت أعباؤه وتضاعفت مسئولياته. اختار طريق العداء والخصومة لكل رأي مخالف أو مُعارض، يُغازل بهذا الأسلوب طريقًا يُقربه من الوزير نفسه..

*****

وكأنها عُقدة ذنب تصاعدت لديه، مع أن لطفي لم يرتكبها قاصدًا، لكنه نداء الانسانية الذي يصدح من أمثاله، وأخذ تأثيرها يئن في مشاعره كلما رأى القطط تتقاتل من أجل الفوز بنصيب تأكله من فضلات وبقايا طعام في أكوام القمامة الملقاة على قارعات الطرق، تتنافس عليها كلاب وجُرزان وزواحف من أجل البقاء على قيد الحياة.

لم تعد معركة البقاء ببقايا الطعام وأماكن للإيواء مقصورة على هذه المخلوقات، دخل طرفا فيها بعض فئات من بني البشر، من الفقراء، من المُهمشين، من المُستضعفين، ممن جارَ عليهم الزمان، وأجبرتهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية على مُجاورة القطط والكلاب والجُرزان، ينبشون في الأكوام والصناديق آملين في الحصول على ما يسد الرمق، ويُلب نداء الامعاء الخاوية..

ازدادت قناعة لطفي بحجم الارتباط الوجداني لوالدته وابنته مع القطة ويني، كان يستشعر حنينهما لشقاوتها معهما، يرى حُزنهما على فقدانها، يَراه في العيون بدون إفصاح صريح، ووجد نفسه مدفوعا

بوخز من ضمير لكي يعوضهما بشيء يُلبي حاجتهما الإنسانية إليه، وعليه لم يستغرب هذه المساحة المتزايدة من إنسانية والدته وابنته، وكلاهما ارتبط بالآخر، الجدة بحفيدتها..

تكفلت الحاجة إحسان بحفيدتها منذ أن كانت طفلة في بداية عامها الثاني بعد وفاة أمها، واستعانت الجدة بكل خبراتها وتجاربها السابقة في تربية أولادها الثلاثة، ومنحتهم بكل حُب وحنان إلى روزان، فكان التواصل بينهما أقوى من تلك الحظوظ التي تجمع الأم بإبنها، والإبنة بأبيها..

وها هي روزان قد اكتملت أنوثتها قبل دخولها الجامعة، حققت حلم والدها في إلتحاقها بكلية الطب، ورفعت رأس جدتها عاليا فيما وصلت إليه، فعلى الرُغم من شيخوختها التي أحنت ظهرها، وأجبرتها على السير بعُكازين، إلا أن فرحتها بتفوق حفيدتها قد زادتها بهاءً وابتهاجًا، ودبت فيها روح وحيوية لم تعهدهما في الجسم، ونضارة إضافية على وجه راضٍ ومُطمئن..

أوفى لطفي بوعده لروزان، وأرضى بعضا من أنات ضميره الذي ظل يؤاخذه على التفريط في ويني، وفي اليوم التالي على اصطحاب والدته وابنته للإقامة معه في حدائق الأهرام، حصل على ثلاث قطط حديثة الولادة، واتته هذه الفُرصة في زيارة لأحد معارفه المُقربين، يُقيم في التجمع الخامس بالقاهرة الجديدة، زوجة صديقه من هواة تربية القطط والعناية بها في فيلتهما المُلحق بها حديقتان بمساحات خضراء،

إلا أنها لم تتنازل عن القطط الثلاث إلا بعد أن تعهد لها برعايتها والاعتناء بها وعدم إلقائها في الشارع..

ويرفُق صديقه بكلّبة ولدت من تزاوج كلبٍ مستورد بأُخرى بلدي، فجاءت بُنيّة اللون عفّية الجسم ذات عواء قوي يبعث بالرهبة والخوف، فارتبطت بأهل البيت ولم تقصر في القيام بدور الحارس الأمين على مدار ثماني سنوات قضتها رابضة أمام البيت وحول مُحيطه. ومع توالي زيارات لطفي لصديقه كان يُقدم لها بعض بقايا وعظام الفراخ، فتآلفت معه بنفس قدر وفائها لصديقه، وأطلق عليها اسم "برَاوني"، فاعتادت عليه، وأصبح نداؤها الذي يستخدمه ويُداعبها به أهل البيت..

ابتهجت روزان، ورحبت الحاجة إحسان بالوافدين الثلاثة، كانوا ذُكورًا، برونو وهابي واسْباك، هكذا اتفقت الحفيدة وجدتها على أسمائها، برونو صاحب فروة بنية تُزينها خطوط بيضاء في الرأس وبين حاجبيه، وله تعاريج سوداء في جانبيه، وذيل معقوف في نهايته وولد به من أُم مختلفة، ويكبر رفيقيه بثلاثة أسابيع..

أما التوءم هابي واسْباك لهما فروة بيضاء مثل الحليب الصافي، ولا يُميزهما عن بعضهما سوى خطين باللون الأسود في الرأس، يبدوان أقرب إلى رقم ١١ في رأس هابي، وإلى رقم ١٠ في رأس اسْباك..

على أن حظوظ برونو وهابي واسْباك من العناية والرعاية كان أوفر بالمقارنة مع ويني، حتى أن لطفي اصطحب روزان بها إلى عيادات كلية الطب البيطري للكشف عليها وتطعيمها، واشترى لهم بعض الأدوية للتخلص من الديدان، ولتطهير الاذنين من الفطريات..

جددت شقاوة برونو وهابي واسْباك جوّ الأُلفة والمرح في البيت، وعلى الرغم من أنهم أضافوا عبئًا واهتمامًا إلى الجدة وحفيدتها، إلا أنهما استقبلاه بالبهجة والاقبال، كانوا مُشاغبين كثيرًا، وباتوا أبرز وسائل التسلية لأفراد البيت، ولهذا الحيوان الأليف براءة الأطفال في تصرفاته وأفعاله، ويدعو إلى الشفقة في هيئته ونظراته..

وكان لطفي على موعد مع مفاجأة أُخرى، أسعدته وتوقع أنها تُسعد ابنته أيضًا :

- أنا برضه بحب القطط، عندي فيري، بتحب أكل التونة، وبتموت في السمك..

هكذا تجاوبت وصال مع لطفي في حديثه عن القطط، كانا يجلسان في كافيتريا فندق حياة ريجنسي الواقع على شارع الكورنيش، وكأنه يدخل بتصميمه ومبانيه في حُضن النيل، وعلى قمته قاعة دائرية بمنظر خلاب، وتدور دورة كاملة بكل ما فيها، فيشاهد من فيها منظرًا بانوراميًا جميلًا للقاهرة، وخصوصا عندما يكون الوقت ليلا..

- سحر القاهرة وجمالها لا يظهر إلا ليلاً..

بهذه الكلمات، تحدث لطفي إلى وصال وقد شدّه المنظر الخلاّب على جانبي النهر، ثم التفت إليها مُبتسمًا، وكأنه يود سماع تعليقها، اعجابه بها يزداد يوما بعد يوم، يروق له تفكيرها، يُقنعه منطقها وواقعيتها، يُدهشه ردود أفعالها وتلقائية بديهيتها، ووجد في قناعته بها ما يجعله يُطوّر أسباب تقاربه إليها، ومنذ التقاها وصديقتها، حافظ على تواصله معها، كانت أول من راودت خاطره من بنات حواء عندما صارحته ابنته بحاجته إلى زوجة، لا يدري لماذا هي بالذات، ولا يدري لماذا يتراوح تفكيره فيها، كلما ذهب إلى غيرها تكون هي حاضرة ليعود إليها..

زارته مرات ومرات في مقر الشركة، في هذا اليوم دعاها إلى العشاء بعد مشاركتهما في ندوة بالفندق، كانت تحمل عنوان " مستقبل الدعاية والاعلان في عالم الانترنت "، لم تكن تلك الندوة هي الأولى التي جمعتهما، كانت وصال قد تركت مجال التدريس لذوي الاحتياجات الخاصة، استهواها مجال الانترنت وتصميماته، وجدت نفسها أكثر في هذا المجال، وزادت أهميتها وإبداعاتها في شركة استقرت فيها، وتميزت أفكارها بالغرابة والعبقرية في حملات المنتجات لشركات عملاقة..

تلاقت اهتمامات وصال العملية مع نفس مجال لطفي الذي قضى فيه جُل عُمره، واستحدثت الشركة التي يعمل بها إدارة للتسويق الاليكتروني، فأفسح ذلك فرصًا أكبر للتقارب بينهما، جمعتهما هواية حُب القطط والرفق بهذا المخلوق اللطيف، وجد نفسه مدفوعًا إليها،

يسعى إلى لقاءاته بها، يحن إليها ويهتم بها مثلما كان يفعل مع ابنته، يزداد إعجابه بها وبذكائها، وفي ذلك اليوم استشعر شاعرية لقاؤهما على العشاء، وقد تراءى لهما المنظر الساحر لليل القاهرة وهما على القمة داخل الاسطوانة الدوارة، تنهد ونظر إلى عينيها ووجهها الهاديء، **وقال**:

- لو عاد بي الزمان إلى مرحلة الشباب، مكُنتش هتردد إني أتجوزك يا وصال..

ابتسمت، ونظرت إليه بثقة، وبدون تفكير قالت:

- ما أنت لسه برضه شباب يا أستاذ لطفي !

# الجزء الرابع

# فستان خطوبة

# ١٣

حَمَلت غيداء لقبًا جديدًا في أوراقها الرسمية، انتقلت إلى طابور الأرامل، مات زوجها الذي تجاوز السبعين ببضع سنين، لم يُكمل أيام الاسبوع منذ دخوله العناية الفائقة، منهم يومان في مستشفى الهرم، وفي صباح اليوم الثالث سارعت بنقله إلى المُجمع الطبي في القبة لكي يحصل على رعاية أفضل وأرخص لكونه ضابطًا سابقًا في القوات المسلحة.

كانت تقضي النهار والساعات الأولى من الليل بالقرب منه، لم تستطع أن تدخل إلى عالمه الجديد ولو بكلمة واحدة، كان يتشبث بوجود يده في يدها مثلما تتشبث هي بالأمل في استعادة وعيه من غيبوبته، تُريد أن يقول لها شيئًا، أخذتها الأوهام والأفكار إلى متاهات بعيدة، لم يفعلها وغاب عنها إلى الأبد في مساء يومه الخامس..

- البقاء لله ، ربنا يتولاكي ويرحمه..

أُسقط في يدها عندما سمعت موّاساة الطبيب لها، وكأنها استيقظت من غفوة إلى صدمة لم تحسب لها حسابًا، استيقظت إلى حقيقة حالها الذي أصبح في ثوان مكشوفًا بلا غطاء، بلا جُدران، بلا سقف يسترها ويظلل عليها ويحفظ لها كينونتها، ما أشد احتياجها إلى هذا اللقب حتى ولو كان على الورق فقط، وقد كان على الورق فقط، الآن أصبحت أكثر فقرًا، أكثر تعاسة، أكثر وحدة، وبلا حيلة، وفي موقف لا تُحسد عليه، ماذا تفعل وكيف تتصرف، حاولت الوصول إلى أولاده، إلى أقاربه، إلى معارفه، لم يُلب نداءها أحدٌ منهم، مثلما قاطعوهما في حياته، لم يظهر أحدهم بجوارها في مماته، ولم يشاركوا في القيام بإجراءات الجنازة، وفي إكرام الميت بدفنه..

كان أكرم هو عَزَاؤها الوحيد، يذهب إلى المستشفى يوميًا لكي يطمئن عليها ويكون بجوارها، استشعر صعوبة الموقف الذي آلت إليه، استشعر حجم الصدمة وقلة الحيلة، استعان بأصدقائه وطلب معاونتهم في إكرام الميت، وفي صباح اليوم التالي تولى لطفي إنهاء اجراءات الجنازة، ودُفِنت الجثة في مقابر الوفاء والامل، مقابر تتواجد على يمين مدخل محور المشير المُتاخم للتجمع الخامس، أقامتها القوات المسلحة لأفرادها، وحصل الزوج على واحدة، وعندما ساءت حالته في الاشهر الأخيرة كان يُداوم على تذكير غيداء بها..

*****

- يبقى الحال على ما هو عليه، ولحين الفصل في الدعوى..

هكذا .. أخبرها المستشار شريف بالعبارة التقليدية، سطّرها قرار وكيل النيابة في المحضر الذي حررته ضد أولاد زوجها، لم تنم في شقة الزوجية سوى يومين فقط بعد وفاته، وفي صباح اليوم الثالث استقبلتهم بترحاب المُنكسر، بضعف المكلوم في مصابه، بقلة حيلة الغريب الذي لا حول له ولا قوة أمام من أضمروا الشر، في مواجهة من تأهبوا للعنف والبلطجة، ردوا على الترحيب بالتهديد، واجهوا دهشتها بالترهيب، وقاموا بطردها عنوة خارج الشقة..

استعادت من ذاكرتها الأهوال والصعاب التي مرت بها منذ خروجها من سوريا، تتابعت في مُخيلتها الاحداث المأساوية التي أجبرتها والملايين على الهروب، تراءت لها سنوات عجاف، عاشت خلالها زوجة لكن على الورق، امرأة لكن عذراء، أنثى بلا أنيس، رغبة بلا راغب، شابة ناهدة الأنوثة وأَدَها شيب المشاعر والبُنيان،

كانت له العائل وربة البيت والخادمة والممرضة، ومع ذلك كانت راضية قانعة، لم تشك، لم تتأوه، لم تتأفف، لم تُقصر في مهامها وواجباتها يومًا واحدًا.

وعندما تشتد عليها هموم وآلام هذه الأحاسيس الشخصية، تتعجب من حظها العاثر وحالها البائس، تنفرد بنفسها داخل المطبخ وتدخل في وصلة من البكاء، تنهمر من عينيها الدموع بغزارة، وكأنها ألقت مع دموعها بهمومها وأعبائها وأوجاعها، وتُجدد نشاطها ومعنوياتها لكي تواصل ذات الرحلة، وأخيرًا أختتمتها معه بسبعة أيام من الآلام وفي المستشفيات وفي أحزان لم تذق فيها للنوم طعمًا أو رغبة..

تغيرت هيئة وطبيعة غيداء، كشرت عن أنياب التحدي، واجهت الوحشية بتوحش، وخلعت ثوب الحليم في مواجهة الجبروت، استدعت جينات الغضب الكامنة بطيّات الظلم واليأس، دوّت بصرخات أيقظت الجيران، أستخدمت معاول يديها لتدُك باب الشقة، أتت أصواتها وطرَقاتها بالفُضُوليين والمُتعاطفين، فتغلب تأثيرهم على تحدي المُحتلين، وتفوقت عنوتها بهم على عنوتهم معها، تحولت الشقة إلى ساحة قتال، وأصبحت مسرحًا للادعاء والجدال وتبادل الاتهامات، وتتابعت الاتصالات لاستدعاء شرطة النجدة..

حضر أكرم قبل وصول الشرطة، قاد المتعاطفين معها، أخلت شرطة النجدة الشقة من الطرفين، وكان الاجراء التقليدي هو تحرير مذكرة إثبات حالة، وفي قسم الشرطة، تحرر محضر بواقعة الاعتداء على شقة الزوجية، أدلت فيه غيداء بأقوالها، استعانت بشهادة بعض الجيران، انضم إليهم أكرم شاهدًا، استخدم صفة الطبيب المُعالج للزوج المتوفي، وبها برر شهادته وسبب تردده عليهما في ذات الشقة محل

النزاع، وفي المُقابل ادعى أولاد الزوج أحقيتهما في الشقة دون غيرهم باعتبارهم الورثة الشرعيين لما تركه والدهم..

لم تحسم النيابة النزاع، لم تُمكن أحد الطرفين من الشقة، وأصبحت رقمًا لدعوى قضائية، وما أدراك ما لدعاوي المواريث من أحبال طويلة، تمتد وتتواصل من جيل إلى جيل، وفي مثل هذه الواقعة، تكون الخاسر هي أرملة الزوج المتوفي، خروجها من الشقة هو الإنكسار بعينه حتى لو لم يحصل عليها أولاد زوجها، لم يحصلوا عليها لكن حرّموها عليها لحين الفصل فيها بأحكام نهائية، فماذا كان مصير غيداء، وإلى أين تأوي؟!

في مطعم خريستو للمأكولات البحرية، وبدعوة على العشاء من شريف، اجتمع الاصدقاء ومعهم غيداء حول إحدى طاولات الصالة العلوية، في رُكن يتصدر ناصية المطعم، ويطُل على بداية طريق الاسكندرية الصحراوي، يقع في الجانب المقابل لامتداد فندق مينا هاوس العتيق، وعلى مرمى البصر يتراءى لهم مبنى رديء عشوائي التكوين لقسم الشرطة، وتعلوه الأهرمات الثلاثة تتبوأ الهضبة بارتفاعات تُعانق السماء، وتخترق ظلام الليل بكبرياء التكوين، وبشموخ هامات ظلت صامدة وثابتة لم تتاثر ولم تتغير مع التغييرات والتحولات التي طالت البُنيان والانسان عبر آلاف السنين..

تكتسي الوجوه هالات حُزن مكبوت على وشك الانفجار، ويُطبق الصمت على الجميع، تشاغلت العيون بمنظر الاهرامات ومُحيطها، امتزجت روعة الوهلة الأولى بذلك الانطباع الذي يستدعي الحسرة من تكوين عشوائي يشوه الصورة الحضارية لميراث الانسانية، يُبادر شريف بكسر حالة الصمت استكمالا لمبادرته بالتفاهم مع نادل المطعم

لاختيار الوجبات، وحاول أكرم استدراج غيداء بحديث المواساة، وطمأنتها بأنه لن يتخلى عنها، وفور أن فرغ شريف من اختيار الوجبات، بادر لطفي بكسر حالة الصمت الحزين موجها كلامه لغيداء:

- حتى الأهرامات، أعظم عجائب الدنيا لا تلق العدالة والاحترام الذي تستحقه، وكل ما تركه القدماء والاجداد من آثار وتُراث لم تُحسن حكوماتنا المُتعاقبة من الحفاظ عليه أو استثماره أوتوظيفه عالميًا بالشكل الذي يُناسب قيمته ومكانته الحضارية..

تنهدت بحرارة، وجاهدت لكي تبدو طبيعية، وحاولت أن تبدو متماسكة، لكن الإعياء والحسرة كانا باديين في ردها:

- كِلَّات الشعوب العربية، شاعرين بالقهر والظلم وبالتقصير..

أومأ الاصدقاء الثلاثة بالموافقة والتسليم لما قالت " عندك حق "، قالوها في صوت واحد وبإحساس واحد، كانت المرة الأولى التي يُشاهدون غيداء رأي العين، قضوا اليوم من بدايته مُساندين وداعمين لها في أزمتها في قسم الشرطة ثم اختتموه مساءً أمام النيابة، كانت المرة ألاولى التي يظهر فيها خالد بعد غياب طويل، كان أكرم قد استعان بلطفي الذي فكر بدوره في أن يستعين بنفوذ شريف بإعتباره أحد رجال السلك القضائي، واتصل بخالد لما له من خبرات وتجارب سابقة، التقوا جميعًا في قسم الشرطة، ثم اجتمعوا في "خريستو" لكي يتدبروا حلًا لغيداء بعد أن أصبحت بلا مأوى..

وعلى الرُغم من حالة الاعياء الشديد والاجهاد الكبير، إلا أن ذلك لم يُخف روعة جمالها الذي كان باديا في شموخ قوامها، حاضراً في جاذبية وجهها، في بشرة امتزجت باللونين الابيض والوردي، زادتها طرحتها وعباءتها السوداوين بهاءً يلفت الانظار ويسترعي الانتباه، حاول كل منهم أن يسيطر على اعجابه وانبهاره بها وبشخصيتها، كُلٍ منهم يتمنى أن يستضيفها في بيته، أن يكون له هذا الشرف وتلك الحظوة، كان ذلك هو حديث النفس ورغبة اللحظة خلال تناول الطعام ..

لكن ما باليد من حيلة عند شريف وأزماته مع زوجته التي أصبحت تشُك في كل تحركاته، وترتاب في كل تأخير له خارج البيت، فكان يضطر أن يستشهد بلطفي لكي يُطمّئنها بأنه موجود معهم على المقهى، وكذلك الحال مع خالد صاحب الزوجتين والاعباء التي يئن ويُعاني من كثرتها، ولم يكن من المقبول لها وله أن تنزل ضيفًا على أكرم، وهو الأمر الذي يتمناه ويحلم به، لكن ليس بهذه الطريقة، وليس في هذا الظرف، وعليه لم يكن أمامهم سوى هذا المخرج :

- أنا بقترح إنك تبقي واحد من أفراد أسرتي الصغيرة، وتعيشي مع أمي وبنتي في بيت العيلة بالمحلة..

سكت الجميع، اكتست ملامحهم بالرضا والارتياح، ولم تُعلق غيداء..

*****

لم تُكمل غيداء اسبوعها الاول ضيفة على الحاجة إحسان وحفيدتها روزان، وفي اليوم السابع انهالت عليها الاتصالات، اتصالات تحمل الوعود والعهود والحلول لأزماتها، وبإحساس واستشعار الأنثى تتفهم ما وراء ذلك، وما هو المقابل الذي يجب أن تُقدمه، وفي غضون ثلاثة أشهر دخلت عالمًا آخر، أصبحت واحدة أخرى، وغيرت مكانها وموقعها لعالمها الجديد.

كيف حدث ذلك؟!

ما هو السر في تحولها الكبير؟!

السر ببساطة يكمن في كلمة واحدة.. غيداء.

نعم، غيداء، هذه ليست فزورة، وهو ليس بلوغاريتم، لم تهبط عليها مُعجزة من السماء، لكنه مناخ اللانظام، اللاقانون.. مناخ أصحاب النفوذ، أصحاب لغة المال، أصحاب لغة الجسد..

على مدار الساعة، وعلى مدار اليوم، وعلى مدار الاسبوع، تتلقى غيداء الاتصالات، تسمع الوعود، وتتكرر على مسامعها العهود.. سوف تحصلين على حقوقك كاملة، سوف تتمكنين من شقة الزوجية، سوف تستردين ملكيتها، سوف تكون لك خالصة، وسوف تكون لك مُطلق الحرية في التصرف فيها ببيعها أو الاحتفاظ بها، وكيفما تشائين ومع من تُحبين..

وعود تتلقاها من مدير النيابة..

تعهدات تسمعها من رئيس المباحث..

تتعجب، وترد عليهما بعبارة واحدة في كل اتصال مع كل منهما، عبارة تُشعل الحماس في أمل يُراودهما فيها، لكنها لا تُقابل الوعود بتعهدات، ولا تُقدم للتعهدات فواتير للسداد حين ميسرة، لكن بلغة الأنثى تجعل الباب مواربا أمام شهوة الجائع، وتختتم حديثها معه بالقول :

- أما نشوف، إنت أد كلامك ولا لأ.. لكن إحساسي بيقولي إنك عايز تساعدني، وجميلك طبعاً مش هنساه..

لقد طمع الذي في قلبه مرض، لقد وقعا مثلما وقع آخرون في هوى غيداء، أخذهم جمالها الفتآن، بهرهم رشاقة قوامها، سحرتهم شخصيتها، اعتدادها بنفسها، خلبتهم طلّتها، عنفوان نهديها النافرتين، عيناها الزرقاوان، فوقهما حاجبان حففتهما بلمسة الروعة والهيام، تعلوهما جبهة سمية في وهلتها الأولى، أسفلهما أنف مديحية بشمخة رومانية.

وتلك اللمسات تزاوجت وتآلفت مع بشرة وردية في وجه يخلط بين سِحر الشام، وجاذبية الشمال الأفريقي، ودلال شاعرية صحراء الجزيرة مع أنوثة الجنوب الاندلسي في وجه واحد، وأنثى واحدة تحمل اسم غيداء..

وقع علاء رئيس المباحث صريعا في هواها من النظرة الأولى، لم يُقاوم مروان مدير النيابة حضورها وتأثيرها عليه منذ أن رآها، وهو في طريقه إلى مكتبه مارًا من نوبتجية القسم قبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم، هذا ما اعتاد عليه ضُباط المباحث عمومًا، يسهرون الليل في مهامهم البوليسية، ويعودون إليها مع الدخول في ظهيرة اليوم التالي..

- الناس دي واقفة كده ليه، اللي مالوش لازمة يطلع برة، وإلا إرميه في الحجز يا نعيم.. مش عايز أشوف حد في النوبتجية يا نعيم..

هكذا بصوته الجهوري الرنان، صرخ المُقدم علاء في النوبتجية، رجَّ دويّ صوته في القسم، وكأنه إنذار لقدومه لكي يهرول الأمناء والمخبرون والمرشدون لإثبات تواجدهم، وفي تلك اللحظة، توقف الصول نعيم عن تدوين الاقوال مؤقتًا، ووقف ليُطلع رئيس المباحث على واقعة النزاع بين غيداء وأولاد زوجها..

في أثناء ذلك تدخّل المستشار شريف وبصحبته مأمور القسم، وطلبا من الصول نعيم عمل مُلحق للمحضر الأصلي ومذكرة إثبات حالة، تطلب فيه الزوجة تمكينها من حيازة الشقة مؤقتًا.

- وكمان بالمرة هنعمل الجزء الأساسي لمحضر حيازة الشقة، وسماع أقوال الشهود والجيران الحاضرين..

هكذا، تدخل المُقدم علاء، تجاوب مع المأمور والمستشار شريف حول مُلحق المحضر، راق له اقتراح الحيازة المؤقته للشقة، أُلقيت الكرة في ملعبه، أصبحت من أُفتتن بها من أول نظرة تحت يده، في مُتناول تحرياته ومعلوماته الأمنية وعيون مُرشديه، وعليه أن يرد على قرار النيابة بمذكرة تحريات للبت النهائي في طلب الحيازة..

لم يأخذه التفكير كثيرًا، فهي إجراءات معتادة ومتوقعة للمباحث، وقد يتسلم قرار النيابة مساء نفس اليوم بعد عرض الفترة المسائية، وربما يصله في صباح الغد في أغلب الأحوال، فلماذا الانتظار، أليس هو القرار المعتاد للنيابة في مثل هذه الحالات هو طلب عمل تحريات وجمع معلومات في الواقعة محل النزاع، فما هي الجدوى من التأجيل، أطراف النزاع حاضرون، ومعهم الشهود والجيران..

راقت له الفكرة، استراحت نفسه لاقتناص الفرصة، يود أن يتعرف أكثر على المرأة التي شدّت انتباهه، واستحوذت على تفكيره منذ أن وقعت عليها عيناه في النوبتجية، فور أن استقر في مكتبه بادر باستدعائها، وأعطى تعليماته بالتحفظ على أطراف المحضر، والابقاء على الشهود والجيران، وأوصى بحُسن المعاملة لهم، وأسوأها للمتنازعين مع زوجة أبيهم..

انفرد بها، استقبلها بود وترحاب شديدين، غير من طبيعته، رقَقَ نبرته معها، عاملها كصاحبة حق يجب أن تأخذه، وسوف يسترده لها، هدأ من روعها بالتعهدات والوعود، ترك مكانه خلف المكتب، وجلس على كرسي مواجه لها، بددَ شكوكها في حُسن المعاملة المفاجيء، وعلى غير عادة المباحث مع أطراف النزاع، ضايفها بنفسه ببعض المشروبات من ثلاجة مكتبه، ومثلما لم يُبعد عينيه عنها وعن مفاتنها، فتح قلبه وأسترق أذنيه ليسمع حكايتها، ولكل تفاصيل مُشكلتها مع أولاد زوجها.

- اعتبريني صديقك، وكوني مطمئنة إنك هتستردي الشقة.

بهذا الطلب، وبهذا الوعد اختتم علاء حديثه مع غيداء، وأبقاها في مكتبه خلال سماع أقوال الشهود والجيران، واختتم الاستجوابات بجرعة مختلفة مع أولاد الزوج، كانت أقرب إلى التهديد والوعيد، ولم تكن مجرد استجواب أو سماع أقوال..

كان النهار قد قارب على الانتهاء، وتعمد رئيس المباحث أن يتحفظ على أولاد الزوج للمثول أمام النيابة في الفترة المسائية، ولم يتردد في كسر القواعد في مثل هذه الأمور، سمح لغيداء بدخول الشقة تحت مبرر الحصول على أوراق ومتعلقات شخصية، أبدى لها رغبته في اصطحابها إلى الشقة بسيارته، إلا أنها شكرته ورفضت عرضه، ووعدته بالتواصل معه، **وبنظرة امتنان قالت :**

- أما نشوف بعد النيابة..

*****

تحركت الغريزة التي لا تُجيدها إلا الأنثى، ومثل كل أنثى أيقنت غيداء بدهائها وألمعيتها أن أسلحة استعادة حقوقها وميراثها في زوجها يكمن فيها، ويبدو واضحًا لعيون الطامعين في جمالها وقوامها وأنوثتها، استشعرت تلك الرغبة الجامحة في عيني رئيس المباحث، لم يستطع كبت وقع تأثيرها عليه، انقلب من حالة الثور الجامح لحظة دخوله نوبتجية القسم إلى حمل وديع، إلى طيب القلب رقيق المشاعر بعد استدعائه لها في مكتبه.

أضمرت في نفسها شيئًا، لابد أن تتغير، أن تتوافق وتتساير مع أجواء لم تعد كأجواء ماض قريب، لحقت شيئًا منه في طفولتها، وسمعت الكثير عنه في حكايات وحسرات جدتها، وقرأت عنها في قصص الصحف وصفحات الكتب، تغنت بها أشعار وروايات تنقل للأجيال الاساطير حول نخوة، كانت من مكونات الشخصية العربية..

تراءت لها مشاكلها مثل شريط سينمائي من ذكريات الآلام والمآسي والاخطار في رحلة هروبها من سوريا، سنوات عجاف، تتربص بها من كل جانب أنياب ذئاب تتأهب للانقضاض على فرائسها، جاهزة للتخلي عن أثمن الموروثات والمعتقدات، وجاهزة للهرب بشعار نفسي أولا..

لم يكن يشغل تفكيرها في تلك السنوات سوى بيت يؤويها، يؤويها من أنياب ذئاب البشر، يؤويها من شوارع لا ترحم ومن خيام لا تمنع، يؤويها من برد زمهرير ومن حر حارق، يؤويها ولو كان بلا سرير أو غطاء يحتويها، يكفي أن تحتويها الجدران، ويكون السقف غطاءها، كانت تتوق إلى نهاية للآلام، آلام في الشتاء، مُعاناة في الصيف، لنظرات ازدراء في طوابير اللاجئين، أمعاء تتلوى من جوع متواصل، لا يأتيه المدد إلا في فتات معونات وكالات غوث اللاجئين الأممية.

اللاجئون يتعايشون مع مخاطر الطبيعة، يقاومون الجوع والامراض، لكن لا يتحملون نظرات الازدراء من أشقاء يعيشون فوق جسد واحد، جسد يمتد من الخليج في الشرق إلى المحيط في الغرب، تتحدث ألسنتهم بلغة واحدة كرّمَهم الله بها، فأداروا لها ظهورهم ليتفاخروا بلغات الاعداء، وتحرقهم نظرات الاحتقار من خلف أسلاك شائكة مُدببة بأسنان العنصرية في القارة العجوز..

تراءت هذه الصور في مُخيلة غيداء، يُفاجئها في مشاهد سريعة، كأنه شريط سينمائي يأخذها إلى شرود متقطع، لا يقطعه إلا حديث أكرم وأصدقائه إليها ببعض النصائح قبل مثولها أمام وكيل النيابة..

ومع مدير النيابة تكرر المشهد، بُهت الذي كفر بأنوثة زوجته، وقع ضحية الوله والاعجاب في غيداء، غرق فيها من أول نظرة، استشعرت حالته التي كانت بادية في عينيه، في تواضعه المُفاجيء، في رقته المُصطنعة، في أوامره لسكرتير النيابة بطلبات جعلته يغيب عنه لأكثر من ساعة..

وعلى غير العادة، وعلى غير ما اعتاد عليه مدير النيابة سألها :

- الموافقة على طلبك بحيازة الشقة مش هتتأخر، وكلها كام يوم وهجبلك تصديق المحامي العام..

بابتسامة خفيفة، نظرت إليه بعيني الامتنان، وسرعان ما أدارت وجهها لتتحاشى نظرات الوله في عينيه، وتعمدت أن ترخي صوتها قليلاً في سؤالها له :

- يعني راح تعطيني الموافقة بعد كام يوم يا باشا..
- مش هتتأخر عن شهر، ويمكن قبل تلات أسابيع، لكن في العادة البت في طلب الحيازة بياخد تلات شهور في التحريات وبقية الاجراءات..

تنهدت بشيء من الارتياح، وجددت إليه نظرات الامتنان، وقالت:

- ربنا يكرم أصلك، وربنا يقدرني على رد جمايلك.

ابتهج، واهتز من فرط سعادته، لوقع كلماتها التي لمست شيئًا في نفسه، وبدت تأثيراتها واضحة على وجهه في عينيها، وفي لمح البصر التقط القلم ليؤشر بالاحمر على المحضر، وأصدر قراره موجهًا إلى مباحث قسم الشرطة:

- ثبوت واقعة تعدي أولاد الزوج المتوفي على زوجة أبيهم.
- إخلاء سبيل المعتدى عليها من سرايّ النيابة..
- عمل التحريات وجمع المعلومات لتبيان هوية قاطني الشقة قبل واقعة التعدي..

وقبل أن يستدعي أمين الشرطة لتسليمه القرار سألها:

- وهتقعدي فين لغاية لما يصدر قرار الحيازة..

وهي تتأهب لمصافحته، ردت عليه :

- هنزل ضيفة على أصدقاء في المحلة..

# ١٤

في مدينة المحلة تحسنت معنويات غيداء، استعادت بعضًا من بريقها ونضارتها، أكملت عقدها الثالث مع نهاية اسبوعها الثالث في منزل الحاجة إحسان، فاجأتها روزان بترتيب حفل لعيد ميلادها التاسع والعشرين، وفاجأهم لطفي باصطحاب رفقاء المقهى لمشاركتهم في إطفاء شمع تورتة غيداء، لبوا جميعَهم الدعوة لكي يُشعروها بدفء عائلي افتقدته كثيرًا، ولم يتخلف خالد الذي بات يحسب كل شيء بالمقابل وبعائد المصلحة، لكنها طبيعة المصريين وجِيناتهم المتوارثة، جِينات يتميزون بها في ظواهرهم الاجتماعية..

كانت المرة الثالثة التي تلتقي فيها غيداء بأكرم منذ واقعة تعدي أولاد زوجها عليها، رافقها في الأولى عندما استدعاها المقدم علاء، وفي الثانية عندما طلبها مدير النيابة مرة أخرى..

إغرورقت عيناها بالدموع، لم تستطع أن تقاوم أحاسيس افتقدتها كثيرًا، استقبلت هداياهم بسعادة لم تألفها منذ سنوات تمتد إلى ذكرياتها في حُضن أبويها، تنوعت الهدايا ما بين عباءة جميلة من الحاجة إحسان، ولاب توب من روزان، وجهاز آي فون من لطفي، وبلمسة فاخرة قدم لها شريف شنطة يد حريمي، إلى سلسلة مفاتيح من خالد، لكن فرحتها كانت أكبر بهدية أكرم، خاتمٌ ذهبيٌ، توقعت أنه قضى قرابة العامين يستقطع جزءًا من راتبه شهريًا، لكي يوفر قيمة مثل هذا الخاتم، وفاجأها وفاجأهم بقوله :

- أنا لقيتها فرصة علشان أأقول اللي في نفسي، الخاتم ده مش بس هدية عيد ميلادك، أنا كمان بخطُبك بيه ..

امتزجت دموعها بمشاعر مُتداخلة، تداخلت بذكرياتها في سنوات من الحرمان، بذكرياتها في أيام الدفء والحنان العائلي، لم تعش مثل هذه المناسبات الأسرية السعيدة منذ آخر تورتة عيد ميلاد لها، تتذكر جيدًا آخر تورتة صنعتها لها أمها، أمعنت في زخرفتها بالكريم شانتي، وبشرائح المانجو والتفاح وحُبيبات الرمان..

تزامن آخر عيد ميلاد لها في حُضن أبويها مع اليوم الثاني لإندلاع ثورة الياسمين في تونس، تتذكر يومها علامات البهجة والتفاؤل في وجه أبيها، يكاد يطير من الفرح وهو يردد " يا ربي، من شان الله ، خُد بأيديهم، يا ربي كُن معاهم، وعُقبالنا إن شاء الله تخلصنا من الطاغية، وتخلصنا من العصابة "..

تتذكر أنه من شدة الخوف لم يقو على ذكر اسم الطاغية، كان الخوف يتمكن من النفوس، كان الرعب يُسيطر على الجميع، الحديث في السياسة من المُحرمات حتى داخل البيوت، يخشون من الهمس في الممنوع، والممنوع على تداول الشعب هو رأس النظام ورجاله، وفي العام الذي شهد فوران الشعب عليهم كان حفل عيد ميلادها بسيطًا لكنه مختلف ومثير، ولم تكن تدري أنه آخر بهجة وآخر تورتة لها مع أسرتها وأقاربها وأصدقائها..

يومها احتفل بها الأقارب والأصدقاء والجيران في الشارع، وعلى هامش مظاهرات الرفض، ومع أصوات مطالب التغيير والحرية والديمقراطية، غنوا لها مع هتافاتهم ضد الطاغية ونظامه :

اليوم عيد ميلادك يا غيداء .... وبُكرة يوم رحليك يا بشَّار

غنوا يا صبايا للحلوة الشهباء .... واهتفوا يا شباب حَيّوا هالثوار

شهقت شهقة اهتزت بها كل خلاياها من أطراف شعرها إلى أطراف أصابعها، شهقة دوت في أرجاء بيت الحاجة إحسان، أذهلت المحتفلين بعيد ميلادها، شهقة أطفأت الشمع قبل أن تطفئه بأنفاسها التي حبستها لسنوات حُرمت فيها مثل هذه المناسبات، وفي اليوم الذي أشرق عليها بالأمل، واستشعرت بوادر السعادة تقترب منها بالورود والأحلام، إلا أن بوادر أخرى تستشعر حفيفها إليها، وتتسلل أنياب تحاول إفتراسها، كل ذلك يتزامن مع إقبال من خفق له قلبها، وتميل إليه مشاعرها، وعندما قرُّت عيناها من شدة الفرح بالمعنى الذي فاجأها به، إلا أن شواهد طريقها لا يُبشر بنهاية يرغبانها..

في اللحظات السعيدة يفاجئُك هاتف من داخلك، يُحذرك من شيء ما، يجعلُك تُردد بتلقائية " اللهم اجعله خير "، يُنبهك بألا تتمادى في الفرحة العارمة، هذا الاعتقاد لم يُراود المصريين اعتباطًا، ولم يعتد عليه العرب في عقود ما بعد الاستعمار لمجرد التقليد، ولا لمجرد التأثُر بموروثات ثقافة دبلوماسية ناعمة، كانت تنشُرها إلى عهد قريب السينما المصرية، وينقلها المدرس والطبيب والمحاسب والمهندس، وكل حرفي ومهني وحتى الداعية إلى الله وسُنة رسوله الكريم، وإلى آخر القائمة من مصريين شاركوا في نهضة إخوانهم من الخليج إلى المُحيط، وامتدت بهم السُبل إلى أدغال أفريقيا، وإلى بعض شعوب الشرق الآسيوي..

وقد يكون لهذا الاعتقاد خلفية سياسية أفرزتها سنوات احتكار الحكم، فقد اعتاد الشعب على الفرحة بمنحة الرئيس السنوية في عيد العمال، ثم تعقبها صدمة الزيادة في ارتفاع أسعار تلتهم المنحة في بِضّع أيام، لكن المؤكد أن هناك مدلولًا إيمانيًا وروحانيًا لذلك الهاتف يُحذر من الإسراف في الفرحة، وينصح أيضًا بعدم الإسراف في الحُزن، وهو ما تؤيدها الآية القرآنية التي يعرفها الكثيرون " لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ... " سورة الحديد ٢٣..

وعليه فقد ابتهجت غيداء أكثر في اللحظة التي تزامنت مع هدية أكرم، وقفزت إلى وجهها علامات فرحة لم تألفها منذ سنوات، لكنها فاجأت الجميع بحالة صمت، وبدت عليها مسحة حُزن ، وأخذت تُردد عبارات الحذر والامتنان والتوسل "**اللهم احفظنا، اللهم اجعله خيرًا، استغفرك ربي وأتوب إليك**"..

انهمرت دموع غيداء، وغادرتهم إلى غرفتها، ولحقت بها الحاجة إحسان تتوكأ على حفيدتها روزان..

*****

- احكيلي يا بنتي، احكيلي وفضّفضيِ عن اللي تاعبك، ومتخبيش حاجة عليا، احكيلي علشان أقدر أساعدك.

هكذا، استشعرت الحاجة إحسان أن غيداء تُعاني ما لا تستطيع كتمانه، تتصارع في داخلها هموم وأفكار عِضال، تُسّر في نفسها خبايا أثقل من الجبال، أكثر عُمقًا من البحار، استشعارها لم يكن وليد ذلك الموقف، لكن بوادره كانت حاضرة منذ قدومها للمعيشة معها، صحيح أنها تآلفت وارتاحت إليها، وإلى الحديث معها، وتقاربت أكثر إلى روزان، تكسرت بينهما حواجز حذر البدايات، بدأت بينهما بذور الصداقة تنمو شيئًا فشيئًا بمرور الساعات والأيام..

اندمجت معهما بسرعة كبيرة، احتسبت نفسها فردًا في البيت، تمد يد العون والمساعدة والمشاركة في أعماله، وأظهرت في أركانه لمسات قوارير الشام، كانت واضحة بنبتات مُزهرة، وبخور ونسمات مُنعشة، تُصاحب روزان في جولات التسوق في شارعي الحنفي والعباسي الشهيرين، ويكررانها في أسواق الأحياء الراقية ذات الصبغة الإفرنجية بماركات الملابس والاكسسوارات، وبنصائحها واختياراتها أضافت ذوقًا رفيعًا ولافتًا لها في الجامعة، دخلت قلبها الذي ارتوى بحنانها، وبإهتمامها أقبلت عليها، وكانا بعد العَشَاء يتسامران مع الحاجة إحسان، يتبادلن الحكايات والطرائف لساعات تمتد أحيانًا إلى منتصف الليل، ولا توقفها إلا رغبة الحاجة إحسان إلى النوم حتى تستيقظ مع أذان فجر يوم جديد..

تشرُد روزان بتفكيرها إلى أُمنيتها التي تتمناها لأبيها، وتتذكر اقتراحها السابق له بزوجة يركن إليها، وتستدير بوجهها إلى غيداء، وتُسلط عليها بنظرات تملؤها رغبة وأمل، وترد على دهشتها وتساؤلها بعد تنهيدة ارتياح :

- لو قالولي ترشحي مين زوجة لباباكي، مش هلاقي أحلى وأفضل وأشيك منك يا غيداء.

فاجأتهما روزان بهذا القول، وبجرأتها التي جعلت وجنتي غيداء تتورد خجلًا، تتلعثم قليلًا وهي تبحث عن رد يُسعف حيرتها، لكن الحاجة إحسان تُسعفها بعد تجاوزها لصدمة المفاجأة سريعًا، وتتقبل بإرتياح اقتراح حفيدتها، وتقول:

- ياريت.."ثم وهي تنظر إلى غيداء بعينين راضيتين وراجيتين" ياريت تكوني من نصيبه ويكون من نصيبك..

تبتسم غيداء ولا تُعلق على كلام روزان وجدّتها، لا تُبد أي رد فعل، قد يُفهم منه قبول، أو يُفهم منه رفّض، لكن الحيرة هي الانطباع الوحيد الذي يتركه هذا النوع من الحوارات، الوقوف على مسافة واحدة بين الامل واليأس، محلك سِر في مُنتصف السلم، وفي وسط الدائرة، لذلك سارعت بتغيير الموضوع بروحها الشامية التي تحتوي ولا تُنفّر، وببراعة لسان الحلبيات اللائي يتفوقن بحلاوة التعبير، وبجاذبية المنطق، قالت لهما:

- الارتباط بالأستاذ لطفي يُشرفني، وحِلم ممكن مستحقهوش، لكن الدخول في تجربة زواج تانية قرار مش سهل، وبِدّو تفكير كتير.

وعلى الرُغم من ذلك، إلا أن طبيعة العلاقة بينهن لم تتأثر، بل كانت تنمو إلى الود والحميمية، وكانت الحفيدة وجدتها يُجددان أحيانًا ذات الأمنية سواء بالإشارة أو التلميح أو التصريح، كُن يتكاشفن، يتضاحكن بذات الروح، وتكسرت بينهن المزيد من الحواجز والأسرار..

كانت غيداء تتحين كل فرصة لكي تُطرب شيخوخة الحاجة إحسان بذكرياتها وماضيها، وتؤكد على قناعتها بأن حصاد الذكريات هي الثروة التي لا تنفد، ولا يطمع فيها الورثة، ولا يُنازعه عليها أحد، وبتجميلها وتطويرها يكون التكرار هي العادة التي لا يملّها صاحبها بين الحين والآخر، وقد كانت وسيلة التسلية الوحيدة لزوجها معها منذ ارتباطهما وحتى وفاته، وها هي تُقبل على حكايات وذكريات الحاجة إحسان، وتستخلص منها العُبر والدروس والنصائح، وتتعجب، ثم تلمس أوتار الإعجاب والاكبار في ماضي الحاجة إحسان، وتقول :

- ليش إنتي يا حاجة ما كررتي تجربة الجواز بعد استشهاد جوزك **"ثم يُرددن .. الله يرحمه"**، ولو كررتيها ما كُنتي ربيتي أولادك كويس، وما كُنتي علمتيهم كويس، وما كُنتي حافظتي على هالثروة وتجارة جدهم، علشان كده أنا بشوفك قدوتي ومثلي الأعلى، ومش بفكر في الجواز الحين، ولو حتى بعد خمس سنين، لكن الحين بفكر ها أعمل إيه لنفسي ولبُكرة..

ومع الاحساس بالرضا والارتياح لماضيها، تنظر إليها بإعجاب أكثر، لكن لا تُخف إشفاقها عليها وعلى جيل حفيدتها، فقد انقلب الوضع، صارت التحديات أقوى وأكبر، وأصبح المُتاح أقل وأرخص، لم تعد القيمة في البشر، لم يعد للأصول والأخلاقيات مكان، كل ذلك تغير وساء في زمن الدهّانين..

وعليه بعد أن هدأت أعصابها وجففت دموعها، ألقت غيداء بآخر أوراقها وأسرارها، وهي تتوسط الحاجة إحسان وروزان، قالت وهن يجلسن معها على حافة السرير:

- ها حكيلك يا حاجة، طبعًا ها أقولك كل حاجة.. أنا دلوقتي ما ليش حَدًا غيركم علشان تنصحوني، وتنوَّرولي الطريق،

ثم بعد لحظات من الصمت :

- الديابة عايزة تنهش في جسمي ياحاجة..

*****

عادت غيداء إلى شقتها في الدور العاشر، عادت بعد ثلاثة أشهر عاشتها بعيدًا عن بيتها، عادت بحنين المُشتاق إلى المأوى الذي آواها ثماني سنوات، ، وإلى جيران تعاملت معهم بحُسنى حقوق الجيرة، فلم تجُر عليهم بشيء ولم يجوروا عليها في السر والعلن، استقبلوا عودتها بالمودة والترحاب.

عادت بائعة للشقة، لمُشتر سعودي اختارها بعفشها وفرشها، إلا من مُقتنياتها الشخصية، تواصلت معه عبر موقع " WhatsApp " ، وأنهت الصفقة بإتصال تليفوني بينهما، وخلال مفاوضاتهما أظهرت مهارة وقدرات فطرية يتميز بها أهل الشام في أعمال البيع والشراء، حددت له يوم الجمعة عصرًا في نهاية الاسبوع لتوقيع العقد مع وكيله، وتسليمه الشقة..

اتسع حضور شهود البيع إلى أكرم وأصدقائه، وفاجأت المقدم علاء بحضور مروان مدير النيابة، لم تقاوم رغبة علاء في المشاركة بعيدًا عن صفته الأمنية، لكن كان مبرره لها تحسبًا لأي مضايقات قد تواجهها رغم تمكينها من حيازة الشقة، وجعلت مشاركة مروان لمراجعة الصيغة القانونية لعقد البيع، وكانت من المرات النادرة التي يكتمل فيها تجمُع الأصدقاء لطفي وشريف وخالد وأكرم..

لكن كيف حدث ذلك؟!

كيف استطاعت غيداء أن تمسك بكل الخيوط لكي تصل إلى هذه النهاية؟!

نعود إلى توابع الاحتفال بعيد ميلادها.

لقد باحت وأفصحت وأسهبت في التفاصيل للحاجة إحسان، وأشركتها وحفيدتها في الهم والألم الذي يكتوي به قلبها، ويشغل تفكيرها، وتئن به أوجاعها، صحيح أنها واجهت ظروفًا أصعب، وتعرضت لويلات أكثر هوّلًا، ومعاناة أشد إيلامًا، واستطاعت أن

تتماسك وتحتفظ وتحافظ، حتى وجدت المأوى في زواج غير مُتكامل، مع زوج ينقصه حق من أهم حقوقها..

وبظهور أكرم في حياتها، تحركت مشاعرها، إلا أنها لم تتغير، لم تُطع نبض قلبها، ولم تُرحب بعرضه الذي كانت تنتظره، وربما كانت توافق عليه في ظرف غير الظرف، وفي أحوال لا يُطاردها فيها رغبات علاء، ولا تُحاصرها إيحاءات وإيماءات ونظرات مروان، وكلاهما لا تَخفى أغراضهما على أي أنثى، لكن ليس من السهل الايقاع بمن أصقلتها التجربة، وشدت من أزرها العزيمة، وتحلّت بقوة الإرادة وسط الأهوال والصعاب والذئاب..

- ما بْدي أتكسر للأول، ومش عايزة أتهزم للتاني؟
- لكن عايزين نرجع حقنا بالاتنين ومن غير ما نتنازل عن حاجة؟
- بْدي أكون حاجة تانية، بدي أكون سيدة أعمال؟
- علشان أعمل ما بْدي إياه، بْدي أدوس على قلبي، وما بفكر في الجواز الحين؟

وكأنهن أطراف مثلث لغرفة عمليات، تتساءل غيداء مع الحاجة إحسان، ولم تُمانع الجدة من مشاركة حفيدتها، بل اعتبرته مُفيدا وصقلا لها، تشترك معهما روزان في المداولات بالاستماع تارة، وبالرأي تارة أُخرى، تركوا المحتفلين بعيد الميلاد في الخارج، فاصطحب لطفي أصدقاءه خارج البيت، توجه بهم في جولة بالمدينة التي كانت تُعرف

بعاصمة الغزل والنسيج والقطن، وعلى مدار الايام التالية لم تنقطع المشاورات بين السيدات الثلاث، تواصلن التفكيروالتخطيط لتوظيف نفوذ وسطوة كل من رئيس المباحث ومدير النيابة في الوصول إلى ما أرادته غيداء، وكيف يكون الثمن المقابل لكليهما..

يرتبط السقوط بالإرادة الهاوية التي تخور مع أول عثرة، وكل عثرة، وترتبط الارادة بالنفس، كلما كانت النفس سوية، كانت الارادة قوية، تتجاوز الصعاب، وتشتد أكثر مع العثرات، تكون قادرة على صُنع المعجزات، وعليه تأهبت غيداء لما هو أكبر وأبعد من مجرد الحصول على شقة تؤويها أو رجل يحتويها، لكنها غدت تتطلع إلى وضع ومكانة يجعلان كل ذلك يأتيها حبوًا، زحفا، ثم هرولة، إلى عالم المال والأعمال..

- كل مشوار يبدأ بخطوة، وحتى الألف ميل بدايته خطوة.

هكذا همست لنفسها، تعرف ماذا تفعل، بدأت تتجاوب مع الراغبين فيها، جعلتهم يتسابقون في التفكير لها والاعداد والتخطيط لصالحها، تتلاعب بهم بكل ماتملك من إرادة ودهاء، اصطنعت اهتماماتها بهم، تنوعت بين الاتصالات التليفونية، وزيارات محسوبة العواقب سابقة الترتيب..

أجرى علاء كل ما هو ضروري في جمع التحريات، أكدت حيازة غيداء للشقة حتى وفاة زوجها، نفذ مروان وعده وتعهداته في استصدار قرار يُمّكِنُها من استعادتها وحيازتها، وحتى لا يُنازعها أحد من الورثة، اشاروا عليها بتمرير عقد بيع للشقة من الزوج لغيداء بتاريخ يسبق الوفاة بعام كامل، تولى مروان مهمة إثبات تاريخ البيع في مصلحة الشهر العقاري، استطاع بعلاقات ونفوذ رجل القضاء أن يُنهي المهمة مع موظفي ودهاليز فرع المصلحة بمحيط ميدان الجيزة..

ولم يخرج علاء من سباق العقد المضروب، شارك في تأكيد شكله القانوني، بعمل إثبات تاريخه بمحضر في قسم الشرطة، وعليه أُغْلقت جميع الثغرات لتنفيذ قرار النيابة بحيازة الشقة لغيداء، ولتأكيد ملكيتها دون نزاع من ورثة آخرين..

وخلال هذه الاجراءات التي يتسابق عليها مُريدوها، كانت لغيداء ترتيبات أُخرى لبيع الشقة، أعلنت عن مواصفاتها على منصة موقع "أوليكس O L X"، هو موقع إليكتروني يُعلن عن كل شيء مجانًا لعدة أيام، وفي حالة عدم البيع يمكن استكمال الشهر بأسعار رمزية أو الانتظار للفترة المجانية في بداية كل شهر جديد، لكنها دخلت في مفاوضات جادة في الشهر التالي مع بعض رواد الموقع، أسفرت عن اتفاقها مع مُشتر سعودي من بُريدة..

عَرض أبوفهد شراءها بكامل العفش، تَمَسُّك عند رقم نصف مليون، ولم تتشدد غيداء أكثر من ذلك في السعر، إلا أن الصفقة كانت مُجدية للطرفين، تخلصت غيداء من الشيء الذي يُعيدها إلى تجربة تُريدها ماضٍ مُغلق ، ولا يجعلها هدفًا يصل إليه الذئاب، وهو في حدود المبلغ الذي كان يدفعه أبو فهد له ولأسرته في الفندق مُقابل إقامته في الإجازة السنوية..

كان يومًا حافلا لغيداء مع جيرانها، أحاطوا بها في الشقة يباركون لها إستعادة حقها، ويباركون صفقة البيع على الرُغم من مشاعر الحُزن على فراقها لهم، كانت هذه المشاعر هو الشيء الوحيد الذي تأثرت به غيداء، وتذكرت وقفتهم معها خلال أزمتها مع أولاد زوجها، ولمعت عيناها بالدموع وهي تردد لهم :

- يا حبايبي أنا مش ممكن أنساكم، ومش ممكن أنسى وقفتكم معايا، وربنا يقدرني على رد جمايلكم، وأول حاجة فكرت فيها إني أجبلكم جيران كويسين، وتكون أُسرة تحافظ على حقوق الجيرة.. ثم ابتسمت وهي تُكمل ومتل ما بيقول المَثَلّ "الجار للجار ولو جار" ..

ولم ينس الجيران والمعارف وسط تلك الأجواء مواقف الذين قدموا لها يد العون، أشادوا بإنسانية وشهامة علاء ومروان وشريف، خاصة رئيس مباحث تعامل بشعار "الشرطة في خدمة الشعب"، مدير نيابة كان هدفه تأكيد القول المأثور "العدل أساس المُلك"، صديق ناصر المظلوم بلا أغراض خاصة !!، يحاول كل منهم السيطرة على ردود أفعاله، خليط من الدهشة، الاحباط، الغضب، تبدو أقوالهم في صورة رجل الحق، العدل ، الخير، القومية العربية:!!

- نُصرة المظلوم واجب، مد يد العون للأشقاء مسئولية لا نتهاون فيها، وحق لكل عربي في كل قُطر عربي، تحميه العروبة واللغة والتاريخ والمصير الواحد!!

ووسط هذه الأجواء وتلك المشاعر الممزوجة بحماس مُصطنع، يجلس ثلاثة شُبان من أبناء الجيران، أعمارهم أقل من ثمانية عشر عامًا، انشغلوا بالتقليب في قنوات التلفزيون، تردد أخبار عن تصعيد دول التحالف من إجراءاتها العقابية في حصار شقيقتهم قطر.. تسريبات إخبارية تردد قيام أثرياء من الامارات بشراء أراضٍ وبيوت فلسطينية

في القدس لصالح أشخاص وجمعيات إسرائيلية.. استشهاد ثمانية صيادين من قطاع غزة دخلوا المياه الاقليمية المصرية عن طريق الخطأ.. قوات الامارات تُحكم سيطرتها على جزيرة سُقطرى اليمنية، وتنقل أشجار نادرة إلى دُبي وأبوظبي.. قوات خليفة حفتر المدعومة بدول التحالف تُحاصر العاصمة الليبية طرابلس.. عدة انفجارات بالقرب من العتبات المقدسة في بغداد....

تطوي السيارة طريقها ، تختفي بعيدًا عن الأنظار، تغيب في زحام شارع اللبّيني في اتجاه الطريق الدائري، تحمل غيداء إلى وجهتها الجديدة، لا تحمل معها إلا شنطة أغراضها الشخصية، وتحتضن قطتها **" حسناء"** إلى عنوانها الجديد.

إلى التجمع الخامس..

# ١٥

..اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه إهدني إلى ضالتي..

هذا الحديث النبوي الشريف، تعلمته غيداء من جدتها في صباها، كانت تحاول به تهدئتها عندما تفقد شيئًا من مُقتنياتها أو ألعابها، فلا تَكُف عن الصياح، ولا تتوقف عن تساؤلاتها لكل مَن في البيت :

- وين عروستي، وين الفيونكة، وين الدراجة،...كانت هّون...وين راحت يا جدتي.

كانت هي تسلية جدتها على مدار الساعة، تبتهج بها وتتفاخر بألمعيتها، تتحامل على نفسها وحفيدتها تُجرجرها، وتشدها للبحث عن أشيائها، فتنصحها جدتها بترديد الحديث الشريف معها، يُرددانه معًا وهما يتجولان في أركان البيت، وعندما يعثُران على ما فقدته، تُداعبها جدتها، وتقول:

- شُفتي يا الشعنونة، مش انتي اللي وضعتيها هّون.

تضحك وتتمايل الصبية، وترد على جدتها:

- لا يا جدتو..ربنا هو اللي بيستجيب لدعواتنا في كل مرة.

مثل هذه الذكريات، كانت تُراود غيداء من حين لآخر، وعلى قدر قيمتها وأهميتها المعنوية، إلا أنها كانت تُصيبها بالأسى والحزن على ما أصابها، وبما لحق بكل السوريين الذين أصبحوا غُرباء داخل وخارج بلادهم، فكانت تُردد الحديث الشريف كثيرًا لعل الله يَهديها إلى زوج خالتها، وابنته جنىّ التي تصغُرها بعامين.

قادتها الصدفة البحتة لكي تعرف أن بسّام، زوج خالتها وابنته انتهى بهما المُقام فى التجمع الخامس، كان ذلك عندما رافقت زوجها في إحدى زياراته إلى طبيب الأسنان، كانا يذهبان إلى العيادة سيرًا على الاقدام، عنوانها في منطقة الكوم الأخضر قبل إشارة المريوطية، وتعمل بها سيدة سورية أربعينية العُمر، تقوم بمهام الاستقبال والممرضة وأعمال النظافة، تتجاذب معها غيداء أطراف الحديث كلما ذهبت مع زوجها إلى العيادة، أمدتها بأسماء بعض سوريين، يشكلون رابطة غير رسمية ويعرفون الكثير عن المهاجرين، ومنهم عرفت أن بسّام يمتلك محلا لبيع الادوات الكهربائية، ومكانه في مول تجاري يُعرف باسم عِنابَة.

لم تشأ غيداء أن تترك زوجها بمفردة لكي تبحث عن بسّام وابنة خالتها، لكنها فاجأتهما في نفس اليوم الذي دُفن فيه زوجها إلى مثواه الأخير، رافقها أكرم في البحث عن مول عنابة، لم يُصدق بسّام ما رأته عيناه، لم يُصدق أن غيداء ما زالت على قيد الحياة، فلم يتمالك أعصابه من وقع المفاجأة، ترك المحل من فوره دون أن يقول شيئًا لمعاونيه، اصطحب غيداء إلى ابنة خالتها جنىّ.

قضت بقية اليوم في صحبة جنىّ، ومع دخول الليل أصرت على العودة إلى شقتها، خطت معهما أول خطوة في إعادة لمّ الشمل، غادرتهما وبصحبتها أكرم بآمال وروح جديدة في طريق جديد، كانت بدايته من المدافن، مدافن الوفاء والأمل.

*****

بعد عام وقليل من أيام العام الثاني، تغيرت أحول غيداء تماما، يتردد اسمها على ألسنة فتيات وسيدات القاهرة الجديدة، تبدو لمساتها وذوقها الجذاب على أجسادهن، يتلألأ عليهن بمُنتجات **"أزياء جنى وغيداء"** الذي تمتلكه بالمناصفة مع إبنة خالتها، تخصصتا في فساتين أفراح أعياد الميلاد والخطوبة والزواج، وفي العبايات السورية.

كانت قد خططت وتناقشت في فكرته مع جنىّ وزوج خالتها خلال زيارة لمُّ الشمل، كان عالم الازياء من الأفكار التي تداولتها مع الحاجة إحسان وصديقتها الشابة روزان، مالت إليها أكثر لكونها إمتدادًا لحرفة والدتها، فقد كانت تمتهن خياطة وتطريز الملابس والفساتين لصالح المحلات والتجار في حلب.

رحبت جنىّ بفكرة المشروع وبمشاركتها فيه، وتعهدت الحاجة إحسان وحفيدتها بمد يد العون لها في توريد ما تحتاجه من أقمشة ومنسوجات محلات المانيفاتورة التي تمتلكها العائلة، ولدى تُجار آخرين في المحلة الكبرى، ويومها طلبت غيداء من بسّام البحث عن مكان مناسب "لأزياء جنى وغيداء".

انتقى بسّام بدرومًا على مساحة ستمائة متر في إحدى الفيلات بين التجمع الاول والتجمع الخامس، تقع على محور رئيسي يمتد إلى مدينة الرحاب، اتخذته مقرًا للمشروع ومنزلًا لإقامتها أيضًا، ووضعت مع جنى كل ما يملكانه في التجهيز وتوفير احتياجاته، ولكي تكون اللمسات شامية خالصة، استعانتا بمهاجرين سوريين في التصميم والخياطة والتطريز.

بمرور الوقت اتسع النشاط يومًا بعد يوم، انضم إليهم بعض المحترفين في البيع والتسويق الإليكتروني، وامتدت شهرتهم في المنتجات والتصميمات الجديدة إلى العديد من المدن والأحياء الراقية..

- الحمد لله، حققنا حلمنا، وبقينا الأفضل والأشهر عند عُملائنا، وكمان عندنا فنانات من الزبائن..

هكذا ..تنهدت غيداء بارتياح، ولمعت عيناها بغلالة من دموع البهجة والسعادة، واحتوت يديْ ابنة خالتها، كان ذلك في نهاية أحد أيام شهر نوفمبر، فابتسمت جنىّ، شاركتها مشاعر الفرحة، وردت عليها :

- من أسبوع فات مرُّ عام بالتمام على افتتاح المعرض، ولازم نحتفل بهالمناسبة، "ثم تغمز بعينها" وطبعًا ها يشاركنا الاحتفال الأحباب والأصدقاء..

تبتسم غيداء، وترد:

- إي والله، فكرة طيبة،

ثم استأنفت :

- وبالمرة نعمل " ديفيلية " نقدم فيه تصميم جديد لفستان سهرة الكريسماس، ومعه تصميمات لفساتين وعبايات شامية وتركية.

وتعود جنىّ للغمز بعينها، وتقول:

- ونقدم "تصميم جديد" لفستان خطوبة..

*****

للانتقام صور عديدة.

وللعقاب وسائل متنوعة.

وكيف يكون رد الفعل تجاه المستهدف، وماذا إذا كان غريبًا في نظر ضامري الشر، وما هو الحال إذا كان مُهاجرًا لا سند ولا ضهر له، يُصبح هدفًا سهلا للإنتقام والعقاب..

على مدار العام، كانت غيداء هدفًا لعلاء ومروان، شعرا بذلك الاحساس للطعنة الغادرة، أجهضت رغباتهما فيها، تلاعبت بهما، تصوراها تلك اللعوب التي نالت من كبريائهما، أشعرتهُما بالنقص وتملّكت منهما غيرة قاتلة، أوهمتهما بسذاجة لا تكتشفها العين الخبيرة، وظفتها لأغراضها، وجعلتهما يتجاوزان الاجراءات، ويكسران القواعد، يُخالفان ضميرهما، ويتحايلان على القانون، ويُهدران حقوق أولاد زوجها لكي ينالا رضاها، فلم تزّض بهما أو بأحدهما، لم تتنازل لهما وطعنت رجولتهما.

وبعد كل ما قدماه لها، هربت منهما وجعلتهما اضحوكة أمام نفسيهما، أمام جميع من حضروا بيع الشقة، هربت وأخفت نفسها عنهما، وعن كل ما يربطها بحي الهرم..

هكذا كانت تشتعل نار الغل والغضب فيهما، يعتصرهما الألم، يتعاظم داخل مروان، ويسيطر على تفكير علاء، جمعت بينهما رغبة الانتقام ممن كادت لهما، أصدرا حُكمًا رادعًا في عقابه لمن مَكُرت بهما، بمن استهانت بهما، ولم تحسب حسابًا لمكانتهما وسطوتهما، في

ذلك اليوم افترقا بدون أن يتبادلا الكلام، افترقا وكأنهما يتسللان بعيدًا عن مُلاحقات العيون، افترقا بنظرة مواساة عابرة من أحدهما للآخر.

وفي اليوم الثالث لم يستطع مروان وعلاء الاستمرار في مقاومة لحظة انفجار معركته الداخلية، سيطرت عليهما رغبة المكاشفة والفضفضة، كان مروان أسبق في اتصاله في الوقت الذي كان يفكر فيه علاء، اتفقا على لقاء فنجان قهوة، اختتماه في مكتبه بقسم الشرطة، وبتعهد بينهما يقول:

- اللي يعرف مكانها، يقول للتاني، وميتصرفش لوحده..

*****

تفككت مجموعة أصدقاء مقهى المريوطية، بالهموم تفرقت بهم السُبُل، أجبرتهم أعباء الحياة، فرامانات رسوم مُتنوعة، غلاء أسعار مُتصاعدة، على عدم الانتظام في اللقاءات، انقطع خالد بعد تصعيده وكيلا للوزارة، حصل على ما لم يكن يَحلم به، تبوأ منصبًا مهنيًا لا يتناسب مع مؤهله الدراسي، لكنه يُكافيء أقواله وتصريحاته وتأييده المُطلق لظاهرة تيار سيطر على الأجواء في تلك المرحلة، أمعن في مُعاداته لتيار تضافرت عليه قوى العداوة والتحريض كما تتداعى الأكلة على قصعتها، انجرف وراء أصوات التطبيع والتصهيُن، انفردت به أكثر كوثر زوجته الثانية، انجبت له طفلة يتأهبان لإدخالها الحضانة، عاد إلى سيرته الأولى وإلى طبيعته الأصيلة!، فلم يعد يتواصل مع زوجته الاولى وابناهما رامي وعمرو إلا من خلال بعض المساعدات المالية من حين لآخر.

- شوف الندل خالد، مبقاش حتى يرد على التليفونات، ونسي كل حاجة.

ردد شريف هذه الكلمات بحسرة مُنتقدا خالد، كان يتحدث إلى لطفي خلال واحدة من لقاءاتهما الشحيحة الصامتة في أغلب أوقاتها، إلا من كركرة الشيشة التي اعتاد عليها لطفي كلما جمعهما المقهى، وأكرم يلوذ بالصمت، لا يُبادل شريف الحديث ومشاعر الود كسابق عهدهما، أحيانًا يختلس إليه نظرات النقمة، كان مبعثها ما أسّرت به إليه غيداء من عدم براءة نظراته وأغراضه فيها، اعتبره من يومها صديقًا غير أمين ولا يستحق ثقته التي أولاه له من قبل..

على أن شريف كان لديه من الهموم والمشاكل، وبما يجعله لا ينتظم أصلا في اللقاءات الشحيحة للمقهى، مشاكل ليس مبعثها خلافاته المتواصلة مع زوجته، ولا يسكنان بعضهما كزوجين متحابين ومتقاربين، فقد أصبح يتعايش معها، بل كان يواجه متاعب كثيرة في عمله، اضطر للرد على تساؤلات، على اتهامات تناولتها مذكرات ضده، وعلى تحقيقات أجراها معه قطاع التفتيش القضائي..

كانت كتابات وأقوال شريف على مواقع وصفحات العالم الافتراضي، المدخل الذي اتخذه ضده الذين يُناصبونه العداوة والبغضاء للوشاية به، لكن أكثرها قسوة ضده، كانت عندما نشر فيديو بصوته أشاد فيه بمواقف حزب الله البطولية في مواجهة إسرائيل، لم يشفع له أنه برر ذلك لقطاع التفتيش بالقول :

- دا كان مجرد مُجاملة للاعب لبناني شاركني بطولة العالم.

وعلى الرغُم من أن شريف اضطر للاعتذار عما بدر منه، وعما يكون قد فُهم خطأ بعد نشر الفيديو بمعرفة اللاعب اللبناني، عبارة تتكرر كثيرًا من آخرين في مواقف أُخرى، نشروا أو رددوا آراء وأقوال لم تكن على الهوى، إلا أن شريف دخل في قائمة المغضوب عليهم، فتوقفت ترقياته، وصدرت الأوامر بحرمانه من امتيازات ومهام، كان يجني من ورائها مكاسب مالية كبيرة في صورة مكافآت وبدلات، أهمها استبعاده من الاشراف القضائي على كافة صور الانتخابات.

- شوفت يا أستاذ بيعملوا فيّ إيه، والله مبقتش طايق حتى نفسي، اللهم هجرة من عندك.

يضطر لطفي كعادته معه إلى تهدئته، يحاول تثبيته على موقفه، اعتاد أن يتلقى اتصالاته من حين إلى آخر، وعليه انحصرت لقاءات مقهى المريوطية على لطفي وأكرم، وفي لقائهما الاخير لا حظ على صديقه الشاب حالة من التوهج بالأمل والتفاؤل، كانت تبدو عليه رغبة استعجال الساعات والايام، لم يكن في حاجة إلى الاستفسار عما يُبهجه، كان يستشعر ما يجعله يتعجل قدوم مساء السبت.

كانت دعوة غيداء لوالدته وابنته في أوائل قائمة المدعوين، الذين انتقتهم لحضور حفل الاحتفال بمرور عام على افتتاح "أزياء جنى وغيداء" ، كانت تقول لهما في مكالماتها :

- فرحتي مش هتكمل إلا بيكم، إنتو شُرّكاتي في النجاح، من شان الله ما تخذلوني، عايزاكو تكونوا جنبي..

وعلى الرغُم من قناعته بحضورهما، وبمشاركتهما لها في الحفل، إلا أن أكرم كان يكرر له السؤال:

- طبعًا الحاجة وروزان جايين معاك الحفل يا أستاذ.
- طبعًا، وأنا عن نفسي هكون حاضر حتى ولو من غير دعوة.

يبتسم أكرم، وبارتياح يرد على ابتسامة الطمأنة للطفي:

- أنا فرحان وسعيد، ومش قادر أصبر حتى ييجي يوم السبت..

تزداد دهشة الارتياح لدى لطفي، ويقول:

- باين علينا هنسمع وهنشوف مفاجأة في الحفل.

يتنهد بتنهيدة ارتياح وأمل، ثم يبتسم، ويحاول أكرم أن يسيطر على بوادر من خجل يُفاجيء وجهه.

ولم يُعلق..

*****

تنّكر المقدم علاء في هيئة أخفت حقيقته وملامحه، وتستّر مروان وراء شارب مُصطنع، ونظارة رمادية على عينيه، وكاب فوق رأسه..انزويا بين المدعوين والمدعوات، يُراقبان غيداء، يُلاحقان تحركاتها بعيون تتحاشى عينيها أو حتى تقع في مرمى نظرها.

كانا قد قضيا الأيام والشهور الماضية يتلمسان أخبارها، يتحسسان أي معلومة تُخبرهما عنها أو تُرشدهما إليها، استعان علاء بمخبرين، وكلف مُرشدين للتجسس والتلصص على من كانوا معها في القسم والنيابة لعل أحدهم يوصلهما إليها، كاد أملهما يذوب ويتبخر نهائيًا، إلا أن الصدفة جددت آمال علاء، فوجيء بلطفي وأكرم خلال واحدة من حملات تحرياته..

كانا يجلسان كعادتهما على مقهى المريوطية، ودون أن يلفت نظرهما أو يُعيرانه اهتمامًا أعادت الذاكرة لعينيه ابتهاجًا بما وقع عليه، وأعاد التأكيد لنفسه الأمّارة بالسوء بالرجوع إلى الأرشيف للإطلاع على المحضر، وتأكد أنهما من الشهود المُقربين إليها، فكلف أفضل عناصره السرية لمراقبتهما وتتبعهما لعله يصل من خلالهما أو أحدهما إلى الهدف، نجح في المهمة، وكعادته في مثل هذه الامور، أدى التحية وسلّمَه ورقة مطوية :

- تمام يا باشا، الهدف في العنوان ده..

اندس علاء ومروان بين الحضور، لم يلفتا إليهما أحدًا، كانوا مائة من سيدات المجتمع وبعض المشاهير، انتقتهم جنى وغيداء بينهما بالتساوي،انشغل الجميع بأجواء وفقرات الحفل، اتخذ موقعه في الدور الأرضي على مساحة ستمائة متر فوق البدروم الذي بدأ فيه المشروع، كان مكان الحفل مفاجأتهما الأولى للمدعوين.

واختصت غيداء نفسها بإعلان المفاجأة الثانية، اختارت توقيتها لفقرة الحفل الاخيرة، استأذنت من الحاضرين لدقائق معدودة، نزلت إلى المعرض في البدروم، جعلت فضول الشوق يزداد، الحضور يترقب مفاجأتها بالتساؤلات والهمهمات والتكهنات، كانت الحاجة إحسان وروزان الأكثر سعادة وشوقًا، وبمشاعره المتوترة يحتمي أكرم منذ بداية الحفل في رباطة جأش لطفي، يحاول تجاوز أحاسيس قلق تتصاعد وتيرتها، يتبادل معه كلمات وعبارات من هنا وهناك، لا يربطها رابط، ولا تؤدي إلى مغزىً حقيقي، وعلى الرغم من أن لطفي يفهم بخبرته أسباب الحالة التي تستحوذ على صديقه الشاب، إلا أنه لم يُخيب حاجته إلى إحتواء توتره، وإلى امتصاص ما يُعانيه من قلق.

عادت غيداء بصحبة آخر موديل في التصميمات الجديدة، قدمته بأسلوب رقيق جذاب، ظهرت الموديل ترتدي شكلًا جديدًا لفستان خطوبة، استقبلته الفتيات والسيدات بصيحات الأعجاب، أوقفتها غيداء بإشارات تُطالبهم بالهدوء، يصمت الجميع ليستمع لمفاجأة غيداء الثانية:

- الفستان ده، هيكون فستان خطوبتي أنا، خطوبتي على الانسان اللي حبيته حب حقيقي.

تتعالى أصوات وصفافير، تمتزج بعبارات فرحة، تحاول غيداء التماسك، وتحاول احتواء ردود أفعال سعادتها بمشاعر المدعوين، تضم يديها إلى صدرها امتنانًا، أنفاس ثلاثة رجال تزداد توترًا وأزيزًا، تستحوذ عليهم مشاعر متضاربة انتظارًا للحظة فارقة، للمرة الثانية تطلب غيداء الهدوء قليلًا :

- طبعًا بدكم تعرفوا مين هو حبيبي اللي هيكون خطيبي.
- طبعًا.. "بصوت شبه جماعي مع صفافير مدوية"
- اللي هيكون خطيبي هو..... " تشير إليه، وتستأنف كلامها وهي تحني رأسها لأسفل بشيء من الخجل، **وقالت :**
- تعالى يا أكرم.

انطلق أكرم يشق طريقه وسط صيحات " أأأووو.. محظظظووووظ ...يابخختك...ياهناااك ، وإلى حيث تقف غيداء، حاول أن يضمها إليه، حاول أن يحتويها في حضنه، وكأن المفاجأة منحته جُرعات من الشجاعة، لقد طال انتظاره لسماع جوابها على عرضه لها في الاحتفال بعيد ميلادها قبل أكثر من عام، كانت تُمهله وتؤجل ردها طوال عام كامل، تُطمئن إلحاحه وإصراره بأنها لم تحب غيره، لن تختار غيره لكنها تنتظر الوقت المناسب، حاول أن يترجم لوعة الانتظار الطويل بحضن أصبح في متناول ذراعيه، حاول أن يعوض مشاعر حبستها أيام وإحداث بقبلة على وجنتيها.

لكنها استعادت نفسها سريعًا، استعادت الحرص والالتزام، كانت أكثر اعتبارًا للموقف، للحضور، استطاعت تهدئة اندفاعه، كبح جماح عنفوان الحرمان الذي انتفض فيه فجأة، انصاع وتناول يديها، يمطرها بقبلات الحب والوله والامتنان.

وسط صيحات فرحة، تشجيع، عبارات تهنئة، دعوات بالتوفيق، يتأهب الجميع للوقوف ومغادرة المقاعد، فجأة تنطفىء الأنوار.

تنطلق أصوات رصاص في دفعات متتالية..

صَرَخَات ذُعر وعَويل وبُكاء..

# ١٦

- الحقونا ياجماعة.
- حد يتصل بالاسعاف.
- حد يتصل بالنجدة.
- حد يشوف النور.

استغاثات تتوالى، الصرخات تتصاعد في هَرّج ومَرّج، يتزاحمون، يتكعبلون، سقوط على الأرض، يسقط آخر مضرجًا بدماء من رأسه، تلقى ضربة قوية بكتلة حديدية، حاول أن يتشبث بمُطلق الرصاص، كان على مسافة قريبة منه، تدوسه أقدام المهرولين إلى الابواب، إلى الشارع، إلى من يدلُّهم على لوحة مفاتيح الاضاءة، يُعيد أحدهم مفتاح اللوحة الرئيسي إلى وضع الاضاءة..

- إلحقوا غيداء وخطيبها.

تصرخ وتستغيث جنىّ، ترتمي على ابنة خالتها.

غيداء مُلقاة على الأرض تنهمر منها الدماء، بجوارها أكرم يُصارع الموت، يمسك بيد غيداء، تبتسم وتقبض على يده بقوة تخور شيئًا فشيئًا، تقبض بيدها الأُخرى بطرف فستان الخطوبة، تنظر إليه بعينين أغرورقت بدموع لوعة، وتقول:

- حبيتك من كل قلبي يا أكرم، وكان نفسي أكون معاك وأسعدك بقية عُمري.

تختلط دموعه بدمائه، يحاول مع تأوهاته أن يقاوم ذلك الشبح الذي يتسلل إليه من بعيد، يقاوم آلامه وهو يزحف ليقترب منها أكثر، يطبع على وجنتها بقبلة توسل ورجاء، بقبلة أمل ودعاء، يُحاول بها أن يدفع في عروقها شُحنة شجاعة، تستقوي بها، تمنحها مُنشطًا لقواها وقلبها وأنفاسها، يجدد بها آماله وآحلامه التي استهدفتها رصاصات غادرة، يستجمع قواه لكي يبثها بالأمل، وعلى مسمع من جموع أحاطت بهما بدموع وأحزان ودعوات ورجاء، يرد عليها :

- وأنا مش هسيبك يا حُب عمري الوحيد، وإن شاء الله هنكون مع بعض لآخر العمر.

تحاول الحاجة إحسان مع جنى وروزان تقويتها بالآمال والدعوات، يُمسك لطفي بيد أكرم، يحاول معه بسّام أن يشد من أزره، يشق ضابط شرطة قسم التجمع الاول طريقه وسط الجموع، يلحق به ضابط من قسم شرطة التجمع الخامس، لنفس الغرض، لنفس البلاغ.

تقترب "حسناء" ، تُصدر مواءً مذعورًا، تنزلق بين الملهوفين، تُحاول أن تتشمم رائحة وأنفاس غيداء.

دخل الضابطان في مُداولات جانبية، أيهما تقع عليه مسئولية إثبات وتحقيق الحادث، لكنهما يستعجلان سيارة الاسعاف من مستشفى القاهرة الجديدة بالتجمع الثالث، لكي تنقلهما إلى قسم الطواريء.

على الطريق الدائري، سيارة مسرعة تقترب من محور المريوطية، داخلها علاء ومروان يتبادلان نظرات التشفي، يبتسمان ويُرددان عبارات يملؤها مشاعر غِلّ، حِقْد، انتقَام..

**تُشير أصابع اتهام إلى أولاد زوج غيداء.**

*****

ماتت غيداء

ماتت زهرة قوارير حلب.

ماتت وذهبت بعذريتها وأحلامها وطموحها إلى رحلتها الآخيرة، ذهبت في اتجاه واحد أحد، إلى لا ظُلم، إلى لا يأس، إلى لا غِلْ، إلى لا كراهية، ذهبت وتركت أكرم يُقاوم شبح الموت داخل العناية الفائقة، دخل في غيبوبة تتراوح بين السكون وأحلام يقظة، يزوغ معها البصر إلى متاهات تُنذر بقرب رحلته الأخيرة..

**﴿وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا وَما تَدْري نَفْسٌ بِأيِّ أرضٍ تَمُوتُ﴾**

**..الآية ٣٤ سورة لقمان.**

حَمل لطفي نَعْشِها إلى مدافن الأسرة في المحلة، تحاملت الحاجة إحسان على شيخوختها ومتاعبها، وأصرّت ومعها روزان وعدد من نِسوة الأقارب والجيران على إيداعها وتوديعها إلى مثواها الأخير. رقد جُسمانها بعيدًا عن بلادها.. بلاد الشام.. لم تستطع تحقيق حلمها بالعودة إلى مسقط رأسها ولو في داخل نعش، وعلى الرُغم من بُعد المسافات بين القبور، إلا أن الموت جمع شمل غيداء بوالديها وجدتها وأقاربها وأحبابها، أخيرًا تلاقت الارواح في الرحلة الأخيرة..

ولم يستطع أكرم أن يتشبث بالحياة أكثر من يومين آخرين، جُل ما استطاعه أن يوصي صديقه لطفي بأن يجعل مثواه الأخير بجوار مثوى حبيبته، وصية يملؤها الرجاء والتوسل، بعدها اطمأن واستراح وعاد لغيبوبته، واستسلم لقبضة ضيف غير مُرحبٍ به، ولنداء قلب مُعلق بقلب مَن سَبقته، لحق بحبيبته في صباح اليوم الثالث، تجاورا في الرحلة الأخيرة، رحلة بلا عودة، وبيوت لا يُزاحمهم فيها أحد.

دخل لُطفي في طور من اليأس والكآبة والحزن، لم يصدق أن ولديّ زوج غيداء ضالعان في الجريمة، تنتابه هلاوس وتهيئوات من حين إلى آخر، تغيرت حالته وهيئته التي كان عليها واعتاده الناس، يَهِيم في الشوارع بلا هُدى ولا هدف، يُفاجيء صديقه في التجمع الخامس بزيارات شبه يومية، واعتاد أن يذهب إلى بسّام، يتشاركان الأنين والآلام والشكوى من ظُلم الانسان للإنسان، من ظُلم الانسان لكل

المخلوقات الأخرى، للحيوان، للأشجار ولسائر الزروع، للمياه والأنهار والبحار، سائر المخلوقات لا تسلم من المُعاناة في مواجهة الظلم وعدم الإنسانية..

البشر في بلادنا لا يَعيشون الحياة فقط، لكن يَعيشون معها ظُلمًا دائمًا.

في بلادنا حتى الحيوان يتحتم عليه مواجهة ظلم إنسانٍ فقد إنسانيته، قبل أن يواجه قسوة الحياة..

ماتت برَاوني.

- ماتت الكلبة برَاوني، مات معها أربعة من أبنائها، ماتت جميعًا بالسم القاتل، ماتت وكانت وابنتها الكُبرى عُشّر بأَجِنّة لجرَاوٍ في أحشائِهما.

فاجأته زوجة صديقه بهذا الخبر الذي ضاعف من آلامه وحُزنه ، فاجأته وزاده بؤسًا على بؤس، أعاده فضولَه إلى وعيه وحالته وهيئته الأولى. لم يُعرف مُرتكب جريمة قتلهم، لكن التُهمة كانت تتجه إلى اثنين، أقواهما إلى خفير يدعى مصطفى، كانت الحراسة هي مصدر رزقه خلال أعمال الانشاءات في العقارات، وانقطع هذا المصدر باستكمال التشطيبات، فأصبح يرصُد المتغيّبين والمُسافرين ليسرق ما كان يحرسه، ولكي يرتكب جرائِمه عليه أن يتخلص أولًا من الحُراس الأوفياء، وغالبًا ما يكون الجوع دافعًا للوثوق بمن يُقدم لها الطعام، وهذا ما فعلته برَاوني وصغارها، منحت الثقة والاطمئنان لمن لا أمان له، ولمن لا ثقة فيه، وأكلت طعامه المسموم..

وعلى الرغُم من أن جُرعة السُم كانت كبيرة، إلا أن برَاوني لم تستسلم للموت بسهولة مثل صغارها، حاولت التشبث بالحياة طوال الليل وساعات الصباح الأولى، تتعذب وتقاوم، فكانت الرغاوي والدماء تندفع من جوفها مع عوائها وأناتها، ومن شدة الآلام تقفز لأعلى لتسقُط على رأسها، وأخذ العواء يضعُف ويخفُت تدريجيًا حتى استسلمت تمامًا وفردت أرجُلها الأربع.

وكأن المنطقة أيضًا لم تسلم من الكآبة، هبط سكون رهيب يبعث رهبة إلى النفس، انقطع الوَنَس، يقطعه أحيانًا عِواء كلب ذكر ملون وآخر هو أكبر جراوي برَاوني، أنقذتهما من السُم القاتل سرّحة من سرَحاتِهما، يبدو الحزن باديا عليهما وعلى سلوكهما، تتملكهُما حيرة انتظار عودة برَاوني كعادتها، يبحثان عنها بلهفة على امتداد البصر يمينًا ويسارًا.

الحزن أوقف شهيتهما، لم يستجيبا لمحاولات لطفي معهما ببقايا طعام، ومع كل يوم يمر يُبرهنان على حزنهما الشديد عليها، خمسة أيامٍ قضاياها في نفس مكان اعتيادهما بجوار برَاوني وجراويها الصغار، لم يأكُلا ولم يتوقفا عن نظرات اللهفة والحيرة ... يستسلم الكلب الملون، يبسط ذراعيه الأماميتين ويُلقي برأسه فوقهما، وكأن طبيعته قد تعطلت، فلم يعد ينبح كما اعتاد مع برَاوني في مواجهة أي غريب سواء من بني البشر أو من المتطفلين من بني جلدته..

لا تتوقف حالات القتل والاعتداء والقسوة والتعذيب على مخلوقات الوفاء. بعد أيام أُخرى ماتت كلبة يافعة وبجوارها جراويها الثلاثة، ماتت ومازالت آثار حليب أُمهم على ألسنتهم الصغيرة، امتدت إليهم الأيدي الآثمة بطعام مسموم، قابلوا ثقتها وبراءتها بالخداع والمكر.

لماذا تزداد القسوة وتتراجع الرحمة فيمن خلقه الله إنسانا!! لماذا يَسْخَر البعض ممن يتعاطف ويَرفُق بهذه المخلوقات ؟! أليست معروفة بوصف أليفة؟ ألم يَخلُقها الله بصفة التآلف لكي تتآلف مع الإنسان الذي يتنكر لها؟! أليس لهذه المخلوقات حقٌ في الحياة تماما مثل البشر؟! أليس لها نصيب فيما أوجده الله للجميع، لكنْ بنو البشر استولوا على كل شيء بأطماعهم وأنانيتهم..

تفاعل الكثيرون مع تساؤلات لطفي حول جرائم الانسان ضد الانسان والحيوان . وَسَّعَ نطاقها في العالم الافتراضي الاكثر انتشارًا والاكثر تأثيرًا، كان للرحمة والانسانية حضورٌ لدى البعض يُقابلها نُقصَان يُبرهن على نُقصَان إيمان الآخرين، ومعها يتسع النطاق بتأكيدات تقول: من لا يَرفُق بالحيوان لا يتعاطف ولا يتسامح مع الانسان، بل إن أول جريمة قتل منذ بدء الخليقة ارتكبها إنسان وليس حيوانًا، ويومها عَلَّمَ الغراب قابيل كيف يواري سوّءَةَ أخيه هابيل..

لم يخلُق الله الكائنات الأخرى عبثًا، بل شملها بحمايته ورعايته ورحمته وعدالته، تمامًا مثلما منحها للبشر، ولذلك توعد قُساة القلوب بالويل : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ .. **الآية ٢٢ سورة الزمر**.

وجعل لهذه المخلوقات نصيبا في الحياة تمامًا مثل بني البشر، "..
**﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾**

**.. الآية ٣٨ سورة** الأنعام.

لذلك عندما عاقبَ الله بشرًا على كفرهم وذنوبهم، وأهلكهم بالطوفان، أمر نبيه نوح بأن يَصطَحب معه في الفُلك زوجين من كل المخلوقات الأخرى، وصعدت الفُلك مع الذين آمنوا بدعوة ورسالة نوح عليه السلام..

للقطط والكلاب مشاعر وأحاسيس مثل بني البشر، تفرح وتبتهج وتحزن، لكن تختلف عن البشر في مصداقية التعبير، لا تتظاهر بغير ما تُبطن، لا تتلون بغير حقيقتها، لا تشكوا ولا تتاجر بأحزانها، وإذا توقفت عن المواءِ والعواء بلغة الحُزن والألم، فإنها تدخُل في صمت على مدار الليل والنهار،لا تعرف الغِل والانتقام، وليس للظلم سبيل إلى تلقائيتها، ولا يمكن أن تجتمع الخيانة مع الوفاء..

ليس في هذه المخلوقات الأليفة ملاوع أو كذاب أو منافق.

لا يوجد فيها دهّان..

**تمت ،،،**